المقصلة

وجواسيس الشباك الصهيوني

الأسير المهندس

عبدالله غالب البرغوثي

الفرسان
للنشر والتوزيع

صندوق الكتب
BOXOK

الكتـــــــاب: المقصلة وجواسيس الشاباك الصهيوني

المؤلـــــــف: عبد الله غالب البرغوثي

التصميم والإخراج: كمبيوتر إكسبرس - عمان - +٩٦٢ ٦ ٥٦٩٨ ٣٦٠

الإشراف العـــام: م. حســـن صالـــح

جميع الحقوق محفوظـــة لدى

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

يحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخـــراج هذا الكتـاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©

Al Fursan Est. For Publishing & Distributing

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

2015م - 1436هـ

9789957714437 ISBN

رقم الإيداع 4449/09/2014

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

Al Fursan Est. For Publishing & Distributing

Jordan - Amman - Abdaly	الأردن - عمان - العبدلي
Tel. +962 6 560 73 87	هاتف: ٧٣٨٦ ٥٦٠ ٦ ٠٠٩٦٢
Fax. +962 6 565 53 70	فاكس: ٣٤٧٠ ٥٦٦ ٦ ٠٠٩٦٢
P.O.Box 240664 Amman 11124 Jordan	ص.ب ٢٤٠٦٦٤ عمان ١١١٢٤ الأردن

E-mail: alfursan111@yahoo.com

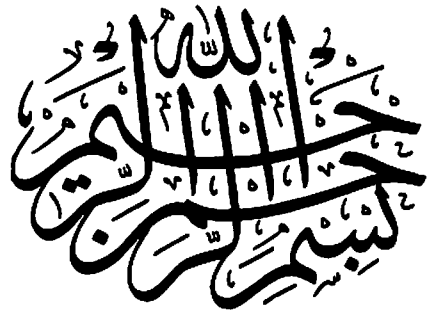

من أقوال المهندس عبد الله البرغوثي

لست كاتباً محترفاً، فأنا مجرد مقاوم عشق إطلاق الرصاص إلى صدور بني صهيون، وعندما عز الرصاص في بندقيتي، لم أجد سوى الرصاص في قلمي، قلم الرصاص، كتبت وسأبقى أكتب، وستبقى كلماتي تزعج كل من يقف في طريق المقاومة، كل شوكة وكل عقبة وكل مرجف.

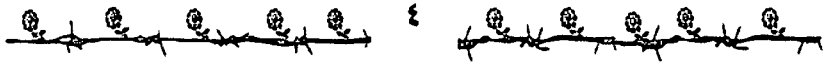

الإهداء

أهدي هذه الرواية إلى أبي «غالب البرغوثي» الذي علّمني ألاّ أركع إلا لله تعالى، وإلى أمي الحبيبة التي باركت عملي الجهادي.. وأهديه إلى روح الشهيد «سيد الشيخ قاسم» رفيق دربي، وإلى روح الشهيد «مجد البرغوثي»، شهيد كلمة الحق الذي استشهد وهو تحت التعذيب لدى جهاز المخابرات الفلسطينية في رام الله، وأهديه إلى أرواح شهداء فلسطين والمقاومة، إلى سيدي ومعلمي وشيخ فلسطين الشيخ «أحمد ياسين».

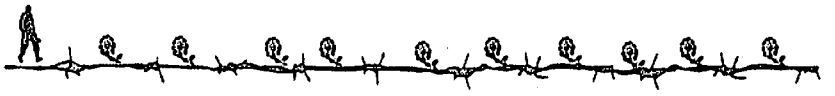

المحتويات

الإهداء	٥
المقدمة	٧
حكيم بلا قوة... وعضلات بلاحكمة	٩
بداية طريق الأشواك	٢٧
حصاد أول الطريق	٤٧
الشمس لا تزال نائمة	٥٩
طوق النجاة	٧٥
يد الله مع الجماعة	٨٩
جولة جديدة من جولات معركة العقول	١٠٣
مصائب الإشاعات... إشاعات المصائب	١٢١
الخاتمة	١٢٦

المقدمة

إن رواية «المقصلة.. وجواسيس الشاباك الصهيوني» هي مجرد إضاءة بسيطة جداً، ومتواضعة، لبعض قصص المواجهة بين المقاومة وعملاء الاحتلال، ولذلك يجب أن تعلم عزيزي القارئ أن ما بين يديك لا يعدو كونه روايةً من نسج خيال كاتبها.. فبطل هذه الرواية اسمه ((شهاب))؛ وهو بطل -كما يقال- مصنوع من حبرٍ كُتب على ورق.

لكن هذا لا يعني أنك لن تجد بين السطور أحداثاً حقيقيةً وواقعية.. قد تكون قاسية وعنيفة وصادقة وصريحة جداً، وهذا يعود لأنّ كاتب الرواية هو شخص صريح لدرجة مفرطة، فهو من ذلك النوع الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يضع نصب عينيه سوى مرضاة الله ربّ العباد. أما العباد فيصعب إرضاؤهم، والأهم أنه لا يهمّني إرضاؤهم.

اعلم يا عزيزي القارئ أن الكاتب «عبد الله غالب البرغوثي» ليس روائياً أو شاعراً، بل هو مقاوم.. مقاتل، وهو صاحب أعلى حكم في تاريخ القضية الفلسطينية، حيث حُكم عليه بسبعةٍ وستين مؤبداً، وخمسة آلاف ومئتي سنة.. وهو أيضاً صاحب أكبر ملف أمني لدى جهاز الشاباك الصهيوني.

ولقد خضع للتحقيق لمدة ستة أشهر متواصلة، رأى خلالها الموت عدة مرات، وتحدث معه ولمسه وقدّر الله له أن ينتصر على محققيه، فخرج من التحقيق كما دخل، فلم يروِ عطش محققي جهاز الشاباك الصهيوني، بل زادهم عطشاً وجوعاً، لذلك، تم عزل الكاتب عبد الله غالب البرغوثي داخل زنزانة العزل الخاص منذ عام ٢٠٠٣ وحتى يومنا هذا، عقاباً على ذلك العطش الذي سببه لضباط الشاباك الصهيوني.

لقد خاض الكاتب قبل أن يكون كاتباً معاركَ ومواجهات كثيرة جداً مع عملاء جهاز الشاباك، لكنك لن تجد لهذا ذكراً في الكتاب- كتاب رواية «المقصلة وجواسيس الشاباك الصهيوني-. وسبب ذلك؛ أن معركة عبد الله البرغوثي ما زالت مستمرة، ولن تنتهي إلاّ بزوال الاحتلال عن تراب فلسطين.. كل فلسطين.

وليكن معلوماً لديك عزيزي القارئ أنني قد بدأت صياغة الحروف الأولى من هذه الرواية في اللحظات الأولى التي تلت مشاهدتي لاغتيال القائد الشهيد وزير الداخلية الأستاذ سعيد صيام والمئات من أبناء الشعب الفلسطيني خلال الحرب الصهيونية على غزة خلال عامي ٢٠٠٨-٢٠٠٩، تلك الدماء الزكية والأرواح البريئة التي أزهقت بفعل آلة الحرب الصهيونية ووشاية العملاء والجواسيس الذين باعوا أنفسهم للاحتلال كيفما شاء، للتخلص من المقاومين وقتل الأبرياء من النساء والشيوخ والأطفال بلا رحمة.

أدعو الله أن يأتي اليوم الذي يتحرّر فيه المسجد الأقصى المبارك من دنس الاحتلال، حتى أصبح حراً، وعندها فقط أكتب عن تجاربي الشخصية.. وجولات حروب العقول مع المحتل وعملائه.

عبد الله غالب البرغوثي

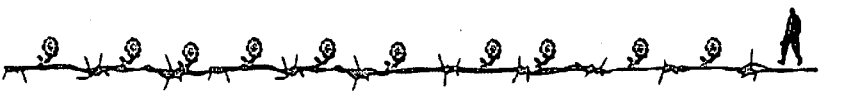

حكيم بلا قوة... وعضلات بلا حكمة

حكيم بلا قوة... وعضلات بلا حكمة

ما اسمك أيها الخنزير؟

اسمي «حكيم»

متى أصبحت تعمل جاسوساً وعميلاً؟

تقصد متى فكّرت أن أصبح جاسوساً وعميلاً.

نعم، متى فكّرت أن تصبح جاسوساً؟

منذ أن بكيت.

ومتى بكيت؟

عندما استشهد أخي.

ومتى استشهد أخوك؟

عندما أطلق جنود الاحتلال الإسرائيلي عليه الرصاص.

ومتى أطلق الرصاص على أخيك؟

قبل أن يستشهد.

ومتى؟... لا لا، وكيف؟... أقصد منذ؟...

على هذا الوضع كان حال الحارس الملقّب بعضلات، والجاسوس «حكيم» عندما سمعتهما وأنا أنزل السلّم متوجهاً إلى القبو، وما إن رآني عضلات الحارس حتى تجمّد خوفاً من نظرة عيوني... أما الجاسوس «حكيم»، فلم أستطع رؤية ملامح وجهه، لأنه كان مغطّى الرأس بكيس أسود سميك.

ألم يطلب منك «نادر» أن تقوم بحراسة الجاسوس، وإلاّ تتحدّث معه؟ ألم يقل لك «نادر» أن هذه هي أوامري يا سيد عضلات؟

لم يتجرأ الحارس عضلات على إجابتي عمّا سألته عنه، فهو رغم قوته الجسدية الظاهرة، إلاّ أنه كان ضعيف الشخصية وضعيف العقل أيضاً... ولولا أنه كان مطلوباً لقوات الاحتلال- لأنه قام بطعن جندي وقتله على إحدى الحواجز العسكرية الصهيونية- لما وافقت على طلب صديقي «علي» الملقّب بالاسم الحركي «نادر» على أن يعمل معنا في وحدة رصد العملاء...

قبل أن تزول ملامح الخوف من على وجه الحارس عضلات، قمت بسحب مسدسي وأطلقت عليه النار... فأصابته الرصاصة الوحيدة التي أطلقت من مسدسي بخدش بسيط في قدمه، إلاّ أنّ تلك الرصاصة خلّفت وراءها نزيفاً من الدماء، رغم أنّ الجرحَ سطحيٌّ، ويعود ذلك إلى ارتفاع درجة حرارة القبو والرطوبة كذلك.

سقط الحارس أرضاً لكنه لم يصحْ، بل «علي» هو الذي كان يصيح ألماً على ألم صديقه عضلات، عندئذ صحت بعلي منادياً إياه: يا «نادر» خذ عضلات وألقِ به في الخارج، فأنا لا أحب الأغبياء.. وقبل أن أكمل حديثي كانت يدي قد مدّت إلى الكيس الذي على رأس الجاسوس «حكيم» فسحبته، فأصبح «حكيم» يستطيع مشاهدة الحارس عضلات وهو مضرج بدمائه، ومشاهدة «نادر» وهو يحاول جرّه صعوداً من القبو.

شاهد الجاسوس كل ذلك بلمح البرق، وما إن التفت نحوي حتى شاهد عيني تبرقان أيضاً، وشاهد المسدس موجهاً إلى رأسه، ثم سمع صوت رصاصة أصابت أذنه اليمنى فقطعت جزءاً منها.

بعد ذلك وضعت الكيس الأسود السميك مرةً أخرى على رأسه تاركاً أذنه تنزف، وتوجّهت نحو «نادر» لكي أساعده على رفع الحارس عضلات إلى أعلى السلّم، وصولاً إلى إحدى الحجرات.

هناك قصصت بنطال الحارس من عند موضع الجرح، وسكبت بعض الماء ثم اليود وضمّدت الجرح، كلّ ذلك والحارس صامت، و«نادر» أيضاً، فكسرت الصمت قائلاً: إنني لم أقصد من إطلاق الرصاصة نحو قدم «عضلات» سوى إحداث خدش بسيط لكي أخيف الجاسوس «حكيم»... فهذا الحكيم ماكر ومراوغ كالثعلب، ولذلك تَوجَّب علي أن أحوّل مكره إلى خوف شديد يفقده توازنه.

قبّلت رأس «عضلات» معتذراً منه ومبدياً أسفي، فقال لي: إنه كاد يُجنُّ من مراوغة الجاسوس له عندما كان يسأله بعض الأسئلة قبل وصولي.. فقلت: سمعتك وأنت تسأله وسمعته عندما كان يجيبك، ولذلك فعلت ما فعلت. فقال «عضلات» الحارس: لقد كان الإخوة دائماً يقولون عنك بأنك ميّت القلب، شديد اليد، سريع البديهة.. واليوم فقط عرفت ما معنى سريع البديهة.

عندها ضحكت، فضحك «نادر»، حتى «عضلات» الحارس ضحك أيضاً، فطلبت من «نادر» أن يعتني بعضلات، وألاّ يدع أيّ أحد من الإخوة مهما كان ينزل إلى القبو، حيث يوجد الجاسوس «حكيم».. فأنا لا أريد إزعاجاً، ولا أريد أحداً أن يقطع عليَّ جلسة التحقيق مهما طالت.

تركت الاثنين ومعهما اثنان من الإخوة، كانا قد دخلا علينا الغرفة عندما سمعا صوت إطلاق الرصاص، وتوجّهت نازلاً الدرج إلى القبو... ما إن وصلت أسفل القبو حتى أغلقت باب الحديد بقوة، فاهتز جسد الجاسوس رعباً وخوفاً رغم أنه كان مكبّلاً ومقيّداً.

رفعت عن رأسه الكيس، وقلت له: اسمع يا «حكيم» أنت جاسوس، وقد تسبّبت من وراء أفعالك مع الاحتلال الصهيوني بمقتل عدد من المقاومين والثوار.. واعلم أيضاً أنني لن أريحك فأقوم بقتلك، بل سوف أجعلك تتمنى الموت كل

يوم ألف مرة، فإن أردت أن تُريح نفسك لتموت بسرعة، فعليك أن تقصّ علي كل حكاياتك من البداية وحتى يومنا هذا... يوم فقدانك لأذنك اليمنى... فإن أردت الا تفقد جزءاً جديداً من جسدك أو جزأين، فإن عليك الاّ تفقدني أعصابي، فأنا لا أحبّ المراوغة والمكر، على عكسك تماماً يا «حكيم».

إن كان كلامي مفهوماً لك، فابدأ بسرد حكايتك على الفور قبل أن أبدأ بسلخ جسدك.. قلت كل ذلك له وهو مطاطئ الرأس، نازف الأذن، مكبّل القدمين واليدين، ومشدود نحو عمود إسمنتيّ في وسط القبو.

في حقيقة الأمر، لم أكن أنوي قتله أو حتى سلخ جسده قط، ولم يكن ما فعلته بأذنه سوى ردّ فعل لا أكثر على ما سمعته منه عندما كان يراوغ الحارس «عضلات»، ولما قراته أيضاً في التقارير التي أعدّها رجال الرصد، فلقد ذكر بها أنه كان متواجداً في مكتبي قبل دقائق من قصف تلك الأماكن التي كان أحدها موقفاً للسيارات، فقصفت السيارة التي كان بداخلها مقاوم فاستشهد، والموقع الآخر كان منزلاً استهدف بصاروخ فأدى ذلك إلى استشهاد عائلة مقاوم بأكملها من زوجة وأطفال، إلا أن المقاوم نجا بفضل الله تعالى. ولقد جاءت أيضاً بتلك التقارير أمور عديدة جعلتني أميل إلى الجزم من أن «حكيم» هذا عميل، بل قد يكون جاسوساً كبيراً إن لم يخطئ حدسي... ذلك الحدس الذي يكاد يكون مثل الحاسة السادسة التي لا تخطئ أبداً..

بدأ «حكيم» يقص حكايته قائلاً:

لقد استشهد أخي قبل نهاية الانتفاضة الأولى بقليل، وبعد بدء دخول رجال السلطة إلى المناطق المحتلة بقليل أيضاً، تلك الفترة الضبابية التي عملت خلالها أجهزة السلطة على إثبات قوتها ونفوذها على الأرض، من أجل كسب ثقة أجهزة الأمن الصهيونية، التي كانت تعطيهم مزيداً من الصلاحيات كلما تفانوا في عملهم.

ذلك العمل الذي كانوا يهدفون من ورائه إلى القضاء على الثورة والثوار والمقاومة والمقاومين، وهكذا أغروا الكثير من الثوار بأن يتركوا الثورة والانتفاضة، وينضموا إلى صفوف أجهزة السلطة الأمنية. أما المقاومون، فلم يقبلوا بما قبِل به الكثير من الثوار، ولذلك لوحِقوا وقتلوا على أيدي رجالات السلطة الأمنية في المناطق التي انسحب منها جيش الاحتلال الصهيوني، تاركاً خلفه كلاً من رجال الأمن الوقائي والمخابرات العامة.

استشهد أخي برصاص قوات الاحتلال بعد أن ضيّق عليه رجالات السلطة الطوق والخناق.. لم تعتبر السلطة أخي شهيداً، بل اعتبرته خارجاً عن القانون ومتمرداً، رغم أنه كان من أطفال الحجارة في بداية الانتفاضة الأولى، ورغم أنه أصيب في إحدى المرات بالعديد من الكسور على يد جنود الاحتلال الصهيوني، عندما حاول الدفاع عن القرية هو وأصدقاءه بالقليل من الحجارة التي كانوا يلقون بها نحو الجنود، الذين داهموا القرية وعاثوا فيها فساداً وخراباً.

أخي، ذلك الذي أصيب برصاصة كادت تقتله، إلاّ أنه بعد عدة شهور قضاها في المشفى استطاع النجاة، فاعتقل بعدها لعدة أشهر، وما إن أطلق سراحه حتى كانت السلطة قد بدأت تعيد رجالها إلى الأرض المحتلة بعد اتفاق أوسلو. عاد أخي إلى القرية حراً من الأسر، وملاحقاً من قبل رجالات السلطة، ثم من الاحتلال، وظل على هذه الحال حتى قُتل، فقيل عنه: مخرّب من قبل العدو الصهيوني، وقيل عنه: خارج عن القانون من رجالات السلطة... وقيل عنه أيضاً: مقاوم بطل من قبل رجال المقاومة.

أما أنا، فلم أقل سوى أنني فقدت أخي الكبير الذي كان بمثابة أبٍ لي؛ لأن أبي كان قد توفّاه الله تعالى منذ أعوام طويلة. وهكذا فقدت أبي مرتين.. بعد ذلك اضطر أخواي الاثنان اللذان كانا يكبراني بعدة أعوام إلى العمل محاولين توفير دخل مادي لسد حاجاتنا من طعام وشراب.

ولأن السلطة اعتبرت أخي خارجاً عن القانون، فإنها رفضت إعطاءنا مخصصات مالية تصرف لعائلات الشهداء.. تلك السلطة التي ما كان لها أن تعود إلى أرض الوطن لولا تضحيات أطفال الحجارة.. أولئك الأطفال الذين داست عليهم وعلى تضحياتهم من أجل أن تُثبت ولاءها وإخلاصها للصهاينة... تلك السلطة التي عاثت خراباً في كل مكان، والآن هنا في فلسطين.

في تلك الأثناء، كنت أنا أكبر، والسلطة ورجالها الأمنيون يكبرون أيضاً.. وتعلو مناصبهم على حساب ما تبقى من أطفال الانتفاضة الأولى، انتفاضة الحجارة.. أولئك الأطفال الذين تحوّلوا إلى مقاومين فأصبحوا مطلوبين ومطاردين من قبل أجهزة أمن السلطة ومن قبل أجهزة أمن الاحتلال الصهيوني المسماة «الشاباك».

كبرت وأنهيت دراستي الثانوية، وقبلت في إحدى الجامعات، وقبل أن أنهي شهري الثاني في الجامعة، قرّر الشعب الفلسطيني أن يبدأ انتفاضة ثانية... انتفاضة الأقصى، بعد أن دنّس شارون المسجد الأقصى بقدميه النجستين.

انطلقت الانتفاضة، لكنني لم أنطلق معها، بل واصلت الحضور إلى الجامعة والجلوس على مقعدي الدراسي، رغم أن غالبية الطلبة كانوا يشاركون في فعاليات الانتفاضة.. تلك الفعاليات التي كنت أمقتها كما أمقت الانتفاضة أيضاً، فلقد كنت أرى رجالات السلطة الذين كانوا يسوّقون السلام المزعوم واتفاقيات أوسلو يحرّضون الشبان على مقاتلة الاحتلال عبر إلقاء الحجارة على جنود الاحتلال... أولئك الجنود الذين كانوا يحصدون أرواح العشرات من الشبان والأطفال كل يوم، أما رجالات أوسلو كانوا ينتقلون من محطة فضائية إلى أخرى، أبطالاً فاتحين ومحررين، رغم أنهم أشباه رجال، مسوّقو سلام كاذب، وبائعو وهْمٍ اسمه أوسلو.

وهنا صعدت مجموعة من أولئك الرجال، بل أشباه الرجال من خلال تصريحاتهم النارية على جثث الشهداء، فأصبحوا يحرّضون الشبان والفتيان، ويختبئون قبل أن تأتي قوات الاحتلال لتبدأ بقتل كل من تصل إليه نيران بنادقهم الرشاشة.

شبان يتظاهرون فيقتلون شهداء، وأشباه رجال يحرضون بعد أن كانوا مسوقي سلام، يحرضون ويختبئون كأنهم ثعالب ماكرة مراوغة، لا دين لها، ولا ضمير عندها.

ما زلت أتابع حضور محاضراتي الجامعية غير مبالٍ بسقوط ذلك الشاب الشهيد أو حتى بسقوط كل شبان الجامعة شهداء، المهم عندي أنا... أنا وحدي، ولا شيء غيري وحدي.

حتى عندما داهمت قوات الاحتلال الصهيوني منزل أهلي الذي كنت أعيش به أنا وأمي وإخوتي، ثم قامت جرافات تلك القوات بهدم المنزل، لأن أحد إخوتي قد قام في صباح ذلك اليوم بطعن جنديين فقتل أحدهما وأصاب الآخر بجروح خطيرة، ورغم أن أخي هذا قد تمّ قتله على الفور من قبل قوات الاحتلال، إلاّ أنهم هدموا منزلنا وشرّدونا.

لم أعترض على ما قاموا به، لكن أخي الآخر اعترض وحاول هو أيضاً طعن جندي من أولئك الذين قاموا بهدم منزلنا، فاعتقلوه، وحكموا عليه بثمانية عشر عاماً، رغم أنه حاول.. حاول فقط، ولم يتمكّن من طعن أحد من أولئك الجنود.

كنت أشاهد ما يجري، وكأنه لا علاقة لي به، فلم أتأثر لاستشهاد أخي الثاني، ولا لاعتقال أخي الثالث، ولا لتشرّد أمي وأختي اللتين ذهبتا للسكن في منزل جدي. أما أنا، ذهبت إلى الجامعة في صباح اليوم التالي، ولم أحضر جنازة أخي، فلقد كنت مشغولاً بالبحث عن سكن قريب من الجامعة، ووجدته في إحدى البنايات المخصصة لسكن الطلاب الجامعيين.

مكثت في ذلك السكن الجامعي عدة أيام، حتى دوهم من قبل قوات الاحتلال... تلك القوات التي اعتقلتني ثم اقتادتني إلى أحد مراكز التحقيق... هناك قال لي المحقق: لماذا لم تحضر جنازة أخيك؟... أخوك الشهيد معتصم الذي أراد الانتقام لأخيك الشهيد أشرف، فقتل جندياً وأصاب آخر... نعم... نعم لم تحضر الجنازة لأنك أردت الانتقام مثلما فعل أخوك الثالث وليد، الذي اعتقل قبل أن يطعن جندياً ويتمكن من قتله، ولكننا تمكّنا من اعتقاله وسجنه والحكم عليه لسنوات طويلة. ألا تقولُ لي: لماذا لم تحضر الجنازة؟ وماذا تحضُر كي تنتقم منّا كما فعل إخوتك؟...

لم أجب على أسئلة المحقق، فلم تكن عندي إجابات أصلاً على تلك الأسئلة. لكني قلت له: أريد أن أعمل معكم... أريد أن أصبح عميلاً وجاسوساً لكم، فأنتم الأسياد، ورجالات السلطة ليسوا سوى مجموعة من أذناب كلاب الأسياد، أما نحن الشعب فمجرّد وقود للمعركة التي يحصد ثمارها لصوص السلطة من ناحية، وأسياد السياسة الصهيونية من ناحية أخرى، لا أريد أن أكون مجرد وقود للمعركة، بل أريد أن أكون جاسوساً عميلاً يعمل مع الأسياد.

عندها قال لي المحقق الصهيوني: هل فقدت عقلك وحكمتك يا «حكيم» بسبب استشهاد أخويك واعتقال الثالث؟ فقلت له: وما أدراك أنّ أخوي شهيدان، ألا تسمونهم أنتم بالمخربين الإرهابيين وتسميهم أجهزة السلطة الأمنية بالخارجين عن القانون!.

دعك من إخوتي، وأجب على طلبي الذي قدّمته لك، فأنا أعيد وأكرر على مسمعك: أنا «حكيم» أريد أن أصبح جاسوساً يعمل لديكم.

بعد تكراري لطلبي هذا عدة مرات تركني المحقق وغادر زنزانة التحقيق لعدة ساعات، وما إن عاد حتى قام بفك القيد عن يدي وقدمي، وقدّم لي الطعام والشراب، وقال لي: احكِ بهدوء عن السبب والدافع الذي جعلك تطلب مثل هذا الطلب الغريب، فبالعادة نحن من نقوم بطلب مثل هذا الأمر ممن نريد أن يتعاونوا معنا، وغالباً ما يرفضون ويثورون ضدنا ويشتموننا بأقوى الشتائم... أما أنت يا «حكيم» فلم أكن أصلاً أجرؤ على طلب عمالتك في الشاباك، فأنت كما سبق وقلت لك، عبارة عن قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أيّ وقت.

بالمناسبة يا «حكيم»، أنا اسمي «كوهين»، وإذا ما اقتنعت بسبب طلبك لأن تكون جاسوساً عندنا، فسوف أكون أنا الضابط المسؤول عنك... عندها قلت للمحقق «كوهين» الضابط في جهاز الشاباك: أنا وببساطة شديدة لا أريد أن أكون قتيلاً تحت التراب، ولا أسيراً خلف القضبان، أنا أريد أن أكون مع الأسياد، لا مع أذنابهم قادة الأجهزة الأمنية.

عندها قال لي «كوهين»: ولأي مدى وحدّ تستطيع أن تتعاون معنا وتفيدنا؟

فأجبته أنه لا حدود عندي أبداً، فأنا أفعل كلّ ما يطلب مني وبدون مناقشة، وبدون أن يكون لدي خطوط حمراء، ولكن هناك شرط واحد فقط، فأنا أريد أن تساعدوني على إنهاء دراستي الجامعية، ثم تساعدوني على أن أرتقي في صفوف الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة حتى أصل إلى أعلى المناصب.

بعد ذلك، طلب «كوهين» من أحد مساعديه أن يقوم بإرجاعي إلى زنزانة الانتظار؛ وهناك مضت عدة أيام قبل أن يعاود «كوهين» استدعائي إلى مكتبه، وعندها سألني: أما زلت تريد أن تتعامل معنا كما قلت، أم أنك غيرت رأيك؟ فأجبته انني لم أغيّر رأيي أبداً، فأنا مقتنع ومؤمن بما أقوله وبما سوف أعمله، وطلبي الآن أن أكون جاسوساً وعميلاً لديكم.

بعد ذلك، اصطحبني «كوهين» إلى غرفةٍ مجاورةٍ كان يجلس فيها أحد الضباط الذي كان يرتدي ملابس مدنية، ويبدو عليه أنه شخص أكاديمي. طلب مني «كوهين» أن أجلس على أحد المقاعد، وجلس هو على مقعد آخر خلفي بحيث أنني لم أعد أستطيع رؤيته. وعندها أخبرني ذلك الضابط الأكاديمي أنه سيخضعني للفحص عبر جهاز فحص الصدق، فهززت رأسي بالموافقة على الفور. بدأ الضابط «أفنر» بتركيب عدد من المجسات الإلكترونية في مختلف أنحاء جسدي، فلقد ركّب مجسين على أصابع يدي اليمنى، وركّب مجساً آخر حول صدري مثبتاً إياه في وسط الصدر.

تلك المجسات كانت تتجه إلى جهاز الحاسوب الموضوع على المكتب أمام الضابط الفاحص «أفنر».. بعد ذلك قام الضابط «كوهين» بإعطائي ورقة مكتوبة باللغة العربية، بها عدة أسئلة، وقال لي: اقرأ الأسئلة وفكّر بالإجابة عليها على مهلك، وأعطى نسخةً أخرى من تلك الأسئلة للضابط الفاحص «أفنر» أيضاً.

أعاد التكرار علي ألاّ أستعجل في التفكير بإجابات الأسئلة التي كانت بين يدي، والتي كان علي أن أجيب عليها بإحدى الكلمتين: إما نعم أولا، دون زيادة أو نقصان.

قرأت الأسئلة عدّة مرات، حتى أنني ما زلت أحفظها عن ظهر قلب، رغم مرور وقتٍ طويل على جلوسي خلف جهاز كشف الكذب، وليس جهاز كشف الحقيقة أو الصدق، كما قال الضابط الفاحص «أفنر»... تلك الأسئلة كانت على النحو الآتي:

١. هل سبق لك أن جلست لتُفحص عبر جهاز كشف الصدق؟
٢. هل تعمل عند أي جهاز أمني أو استخباراتي؟
٣. هل تريد قتل إسرائيليين؟
٤. هل تخطط للانتقام لمقتل أخويك أشرف ومعتصم؟

٥. هل سبق لك أن تدربت أو استعملت أي نوع من السلاح الناري؟

٦. هل تريد أن تصبح عميلاً لدى جهاز الشاباك؟

٧. هل تعطي كامل ولائك لجهاز الشاباك؟

٨. هل أنت مستعد أن تقتل أحداً إذا طلب جهاز الشاباك ذلك؟

٩. هل تكره الانتفاضة؟

١٠. هل تكره المقاومين والثوار من أبناء شعبك؟

١١. هل أنت مستعد للموت في سبيل خدمة جهاز الشاباك؟

١٢. هل تؤدي عبادتك الدينية من صلاة وصوم وغيرها من عبادات؟

كانت تلك الأسئلة الاثنتي عشرة المكتوبة. أما الأسئلة غير المكتوبة، فقد كانت أكثر من ذلك، وكان غالبيتها أسئلة ذات إجابات بديهية، مثل:

١. هل اسمك الشخصي هو «حكيم»؟

٢. هل أنت طالب جامعي في السنة الدراسية الأولى؟

٣. هل تجيد قيادة الطائرات؟

٤. هل لون القميص الذي ترتديه بني؟

٥. هل عمرك تسعة عشر عاما؟

أجبت على كل الأسئلة التي وجهها إليّ الضابط الفاحص «أفنر»؛ ولقد كرّر توجيه الأسئلة أربع مرات، وبعد ذلك قام بفك أجهزة الاستشعار عن أطراف جسدي وقلبي، ثم اصطحبني الضابط «كوهين» إلى مكتبه، وتحدث معي لعدة ساعات مستفسراً عن كل ما مررت به في حياتي، وبعد ذلك أعادني إلى زنزانة الانتظار، وأعطاني ورقة الأسئلة السابقة، وطلب مني أن أفكر في الأجوبة التي سأقولها للضابط الفاحص في يوم الغد.

لم التفت كثيراً إلى الأسئلة، فلقد كنت أعلم أن أجوبتي لن تتغير أبداً.. وفي صباح اليوم التالي وُضِعت على جهاز كشف الكذب، وأجرى لي الفحص «أفنر» مرة أخرى، ولقد كرّرت أجوبتي عليه، أما هو، فلقد كرّر علي الفحص لأربع مرات أخرى صباح ذلك اليوم، ولم يكتفِ بذلك، بل أعاد تكرار الفحص على مدى اليومين التاليين. وهكذا، تمّ فحصي على جهاز الكذب خلال أربعة أيام ست عشرة مرةً بالتمام والكمال. بعد ذلك تمّ إجلاسي مع شخص، عرفت فيما بعد انه طبيب نفسي، لكي يقيّم حالتي النفسية، ولقد وجّه إلي أسئلة قليلة، وترك لي حرية الإجابة والإطالة بالشكل الذي أرغب به.

بعد مضي نحو أسبوعين على اعتقالي، تم طلبي للعمل جاسوساً، وبعد التحقيق والفحص طلب مني الضابط المسؤول عني، وهو «كوهين»، أن أخضع لتجربة عملية. ولقد قال لي، إن هذه التجربة سوف تؤكد له إن كنت أصلح للعمل جاسوساً، وسوف تثبّت مكانتي في عقول كل من يتصيّد لي الأخطاء.

أما التجربة، فقد كانت عبارة عن ثلاثة أشهر أمضيتها معتقلاً في إحدى السجون بعد أن حكمت علي المحكمة العسكرية بالسجن، وكان المطلوب مني أن اثبت للأسرى الفلسطينيين أنني ثائر غاضب، أرغب بالثأر لمقتل أخوي أشرف ومعتصم كما فعل أخي المعتقل وليد.

وبعد أن أثبت ذلك للأسرى الفلسطينيين، كان مطلوباً مني اقتحام عالمهم ومعرفة أسرارهم. وبما أنني كنت أخاً لشهيدين، وأخاً لأسير محكوم بثمانية عشر عاماً، فلقد كانت المهمة سهلة نوعاً ما.

كان الأسرى يعاملونني كابنهم أو أخيهم، وكانوا يبوحون لي بما في داخلهم من أفكارٍ وخطط لما سوف يقدمون عليه عندما يتحرّرون من الأسر.

وياالغباء أولئك الأسرى السذّج، ألا يكفيهم أنهم ضيّعوا زهرات شبابهم خلف قضبان السجن، بل يريدون أن يواصلوا القتال، ليكونوا وقوداً في معركة الحرية، كما يسمونها ويرفعوا رايات النصر على أسوار القدس كما يدعون. ألم يرَ أولئك السذج الأغبياء فِلَل لصوص السلطة، وقصورهم ترتفع فوق هضاب المدن والقرى بالأموال التي ينهبونها من أبناء فلسطين.. فلسطين تلك التي يحبها الأسرى والشهداء، ويقدّسون قدسها وأقصاها.

ما عادت فلسطين.. فلسطين، بل أصبحت مطيّة يركب على ظهرها كل أفاك ومتسلق... فلسطين التي حصد رجال السلطة ثمار انتفاضتها الأولى، وسوف يحصدون أيضاً ثمار هذه الانتفاضة الثانية.

سحقاً لفلسطين، وسحقاً للثورة والثوار، وللمقاومة وللمقاومين، ولكل البُلَهاء الذين أحبوا فلسطين، وسحقاً لك أيضاً أنت يا من تحقّق معي الآن... إن كنت رجلاً فلتقتلني... اقتل إن كنت رجلاً... اقتلني أيها المحقق المقاوم الأبله.. اقتلني إن كنت مقاوماً حقاً وإن كنت رجلاً أصلاً...

لم أُستفز مما قاله لي ذلك الجاسوس الحقير «حكيم»، فلقد كنت قد أكدت قناعتي السابقة من خلال ما قاله في بداية تحقيقي معه، فهو لم يكن يُمثّل سوى شخص حقير باع دينه ووطنه، وبات يكره فلسطين، وكل من ضحّى لأجلها... لم يكن ذلك الحقير «حكيم» يحترم الشهداء الذين كان من بينهم أخواه «أشرف» و«معتصم»، ولم يكن أيضاً يحترم الأسرى ومن بينهم أخوه «وليد» المحكوم بثمانية عشر عاماً. كان ذلك الجاسوس «حكيم» مجرد كومة من اللحم والعظام، مكومة ومكبّلة تحت السلاسل حول عمود في وسط قبو التحقيق، كانت تلك الكومة من اللحم العفن، ترغب في الخلاص والموت بأقصى سرعة ممكنة من خلال استفزازها لي، وذلك لن يحدث قبل أن أحصل على كلّ المعلومات التي أريدها من صاحبها «حكيم» بإذن الله ربي وربّ هذا الكون العظيم.

عندما كان ذلك الجاسوس «حكيم» يتحدّث، كان لا يزال مطأطئ الرأس، دامع العينين، نازف الدم من أذنه التي قُطِع جزء منها برصاصتي، تلك الرصاصة التي كان «حكيم» يرغب بأن اتبعها برصاصة في رأسه، فأريحه من التحقيق فأقتله.

لن أقتله، بل سوف أزيده ألماً على ألم، ولذلك اقتربت منه وغرست جزءاً من سكيني في فخذ قدمه، ثم رفعت رأسه وقلت له: إذا توقفت عن حديثك واعترافاتك، فسأجعل سكيني ترقص داخل جرحك.. سحبت السكين من فخذه، وأوقفت نزيف دمه من خلال قطعة من القماش لففتها حول جرحه... عندها توقّف ذلك العميل عن الصياح والولولة، وغرق في بحرٍ من الدموع.

تركته على هذه الحال، وصعدت إلى أعلى، بعد أن قمت بتغطية رأسه بكيس قماش أسود سميك.

هناك في الأعلى، وجدت «علي» الملقّب بنادر، جالساً يتحدث ويضحك مع الحارس «عضلات» الذي كان اسمه الحقيقي «إياد»، وكان معهما اثنان آخران من المقاومين.... وبعد أن اطمأننت على جرح «إياد» عضلات، طلبت من «علي» أن يصطحب المقاومين، وينزل إلى القبو لكي يقوم بعلاج جراح ذلك الجاسوس «حكيم».

نزل «علي» ومن معه على الفور، مصطحبين معهم كل ما يلزم لعلاج جراح العميل، وكذلك أخذوا معهم بعض الملابس والطعام أيضاً، أما أنا فلقد بقيت مع «إياد» عضلات... عندها سألته: هل تكره يا «إياد» قادة أجهزة الأمن في السلطة الفلسطينية؟ فأجاب «إياد»: أنا لا أكرههم فقط، بل أتمنى لهم الموت، لعنة الله عليهم... فسألت: لماذا يا «إياد» كل هذا الكره والتمني بالموت لأولئك الأبطال.. أبطال أوسلو... أبطال السلطة؟ ... فقال: لأنهم عذبوني في أقبية سجونهم حتى تمنيت الموت، ذلك الموت الذي خطف روح ابن عمي وهو يعذّب ويصعق بالكهرباء على أيدي أولئك الأبطال، أبطال أوسلو... كيف تريد مني ألاّ أكرههم وأتمنى لهم الموت أيضاً؟!

وهل نسيت أنت يا شيخي «شهاب» كيف عُذِّبت وسجنت عندهم لعدة أعوام؟ وهل نسيت أن هذه الأعوام قد تلتها أعوامٌ أخرى كنت قد قضيتها في سجون الصهاينة؟.... أي أنك يا شيخي شهاب قد سجنت عند الصهاينة وعند أبطال أوسلو، وعذّبت هنا وهناك أيضاً، إن كنت نسيت فأنا لم أنسَ ولن أنسَى بإذن الله عزوجل... فأنا لن أنسَى ولن أسامح أبداً.

عند ذلك، قلت لـ«إياد» عضلات: هل تعلم يا «إياد» أن الجاسوس «حكيم» قد طلب من الصهاينة أن يعمل معهم جاسوساً؟ وقد علّل طلبه هذا، بحجة كرهه لرجالات السلطة ولأبطال أجهزتها الأمنية، رغم أنه أخٌ لشهيدين وأخٌ لأسير، ورغم أنه فقد منزله بعد أن هدمته قوات الاحتلال بجرافاتها... رغم كل ذلك إلاّ أنه قد طلب وترجّى الصهاينة بأن يجعلوه كلباً وعميلاً عندهم.

«إياد»، هل أنت غاضب علي لأنني أطلقت الرصاص نحوك، وجعلت الدماء تنزف من قدمك؟...

في الحقيقة يا شيخي في البداية كنت غاضباً منك كثيراً، إلاّ أنني ما عدت غاضباً قطُّ، وإنني أتمنى أن تقبل اعتذاري عن تصرفي مع ذلك الجاسوس «حكيم»... فلقد تجاوزت الأوامر التي كلّفتني بها، وما كان يجب عليّ فعل ذلك... والأهم هو أن جرحي ليس سوى خدش بسيط جداً، خدش تسببت به رصاصة من الشيخ شهاب.. شهاب القنّاص الذي قنص برصاص بندقيته العديد من جنود الصهاينة ومن المستوطنين الحاقدين.

فلقد أدركت يا شيخي شهاب بعد أن هدأت وجلست أتحدث مع «علي» أنك قد فعلت الصواب، وأنك لو أردت أن تجعل الرصاصة تخترق لحمي وعظمي أيضاً لفعلت، فأنت شهاب القناص... هل تعلمني يا شيخي كيف أصبح قناصاً ماهراً مثلك؟ إن علمتني، أعدك بأنني لن أحقق مع جاسوس مرةً أخرى!.

قالها «إياد» وهو يضحك، فضحكت أنا أيضاً، ووعدته بأن أعلمه أصول استعمال بندقية القنص بعد أن أنتهي من التحقيق مع ذلك الجاسوس.

في تلك الأثناء، صعد «علي» والمقاومان اللذان كانا معه من القبو، وقال لي علي أنه ضمّد جراح «حكيم» قام بإلباسه ملابس جديدة، وإطعامه حتى شبع وشرب الماء بعد ذلك... وقال أنه قد توقّف عن البكاء وأصبح هادئاً متماسكاً وصامتاً أيضاً.

قمت متوجهاً إلى المطبخ، وأعددت طعاماً، أكلت منه أنا وعليّاً وإياداً (عضلات) والأخوين الآخرين. ما إن انتهينا من تناول طعامنا حتى كان قد حلّ موعد الصلاة، فطلبت من «إياد» عضلات أن يكون إماماً بالصلاة؛ فكان الإمام رغم جرحه، وقد أطال قراءة القرآن. ولا أدري أفعل ذلك لكي يقول لي أنه ما عاد يتألم، أم لأنه أراد تأخير عودتي إلى القبو رأفةً بالجاسوس من قساوتي؟..

فـ«إياد» رغم قوته الجسدية الهائلة، إلاّ أنه يملك قلب طفل حنون طيب... أكلت وصلّيت، وإلى القبو عدت...

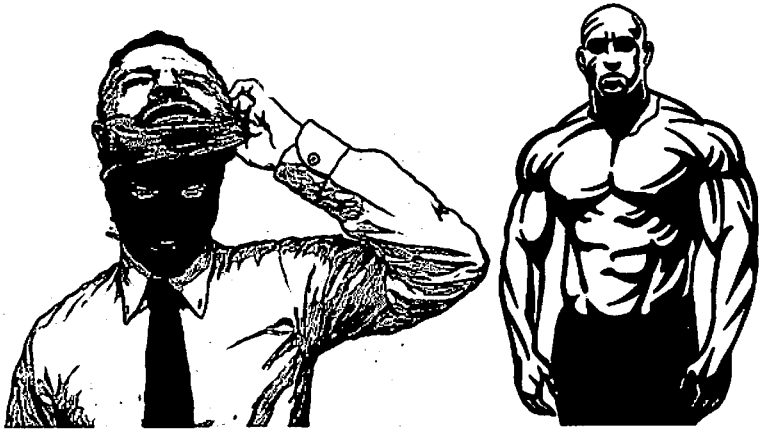

بداية طريق الأشواك

بداية طريق الأشواك

ما إن نزلت إلى القبو، حتى فتحت بابه بهدوء، وأغلقته أيضاً بهدوء، وجلست على الكرسي المقابل لـ «حكيم» الذي يسمع وقع أقدامي النازلة على السلّم، ويسمع صوت الباب وهو يفتح ويغلق، ويسمع صوت أنفاسي أيضاً، فأنا كنت قريباً جداً منه.

وبعد مضي عدة دقائق على هذه الحال، قال لي «حكيم»: هل تريد مني أن أكمل حديثي؟ فبالبرغم من كوني لا أستطيع رؤيتك بسبب الغطاء الموضوع على رأسي، إلاّ أنني أعلم أنك هنا وأنك جالس أمامي مباشرة.

رغم ما قاله الجاسوس «حكيم»، إلاّ أنني بقيت صامتاً لعدة دقائق أخرى... وأظن أن الدقائق عندي كانت تساوي الساعات عند «حكيم»، فهو رغم تضميد جراحه ما زال يتألم، وهو ما زال مرعوباً من المجهول... ذلك المجهول الذي سوف يواجهه في التحقيق تحت قبضتي.

فلقد كنت ألاحظ ارتجاف أطراف جسده واهتزازها، بحيث إنها كانت تشبه أطراف شخص مدمن، مُنعت عنه جرعة المخدرات... فحكيم كان بحاجة إلى جرعة من التحقيق حتى يهدأ، ولذلك قمت بإعطائه تلك الجرعة موجهاً سؤالي الآتي له: بعد أن أنهيت أشهر سجنك الثلاثة التي أمضيتها بين الأسرى الثوار والمقاومين، ما الذي حدث مع الضابط «كوهين»؟ وكيف كان تقييمه لنشاطك خلال غيابك عنه تلك المدة؟.

ما إن سألت «حكيم» هذا السؤال، حتى توقف جسده عن الارتجاف، وشعرت أنه استجمع قواه العصبية من جديد، فرفعت عن رأسه القناع، وبدأ هو بالكلام قائلاً: بعد أن أتممت الأشهر الثلاثة داخل السجن، تم إطلاق سراحي بشكل طبيعي جداً، ولم أقابل الضابط المسؤول عني «كوهين».

رغم أنني جمعت له كمّاً كبيراً من المعلومات، وكنت متعجلاً للقائه ورؤيته، لكي أثبت له أنني جدير بأن أكون جاسوساً وعميلاً عنده، إلا أنه خيّب ظني ولم يلتق بي كما وعدني سابقاً. بعد نحو أسبوعين تم إيقافي على أحد الحواجز الصهيونية التي أقيمت بين جامعتي ومكان سكني. ومن هناك، تم اقتيادي إلى نفس مركز التحقيق الذي كنت به سابقاً، هناك تم إجلاسي في مكتب الضابط «كوهين» حيث كان هو بانتظاري.

عندها قال لي: أهلا بالحكيم «حكيم»، وأردف قائلاً: هيّا يا بطل، أخبرني بالذي صار معك خلال الأسبوعين الماضيين منذ يوم إطلاق سراحك حتى هذه اللحظة؟. فقلت له: ألا تريد أن أخبرك ما جرى معي في داخل السجن وعن المعلومات التي جمعتها لك هناك؟. فقال: معلوماتك هذه لا تهمني، فلقد كان معك داخل السجن خلال الأشهر الماضية، وبنفس القسم الذي كنت أنت فيه، نحو اثنين إلى أربعة جواسيس غيرك، وهم جواسيس قدامى متمكنون ومتمرنون على جمع ما أريد من معلومات من بين الأسرى... ولقد جمعوا عنك أنت كل كلمة وهمسة قلتها داخل السجن، ولذلك قل لي: ما الذي حدث معك خارج أسوار السجن لا داخلها؟

وعندها قلت للضابط «كوهين»: ما إن تم إطلاق سراحي حتى استقبلني أهل قريتي استقبال الفاتحين المحررين، وأقاموا لي احتفالاً كبيراً. فأنا، كما تعلم، أصبحت أسيراً محرراً، وأخاً لشهيدين وأسير آخر، وابن عائلة هُدِم منزلها. ولذلك، كان الكل يعاملني معاملة متميزة، والكل أيضاً يريد التقرّب مني، وخاصّة عناصر التنظيمات الفلسطينية المسلحة؛ من أهل القرية أو من أبناء جامعتي، ولقد عرض علي بعضهم أن أنضمّ إلى الفصيل الذي ينتمي هو إليه، وبالأخص أعضاء الفصائل

الفلسطينية المجهرية التي خبت شعلتها مع نهاية الانتفاضة الأولى، ولم تستطع أن تعيد تجميع قواها في الانتفاضة الثانية. وهنا ذكرت للضابط «كوهين» أسماء الأشخاص الأربعة الذين حاولوا تجنيدي للعمل معهم في مقاومة الاحتلال، وذكرت له أيضاً أسماء تنظيمات هؤلاء الأربعة وبعض التفاصيل الشخصية عنهم....

وكانت على النحو الآتي:

١. شوكت، وهو.....

٢. فادي، وهو.....

٣. بشار، وهو.....

٤. صبحي، وهو.....

وبعد أن قلت لـ«كوهين» ما قلت، طلب مني أن أكتب له على الورق معلومات أكثر تفصيلاً عن أولئك الأربعة، وأعطاني عندها قلماً ومجموعةً من الأوراق، وأعادني إلى غرفة الانتظار التي كنت قد دخلتها قبل نحو أربعة أشهر أول مرة. فجلست هناك وبدأت أكتب له كل ما كنت أعرفه عن أولئك الأربعة.

وبعد نحو ساعتين، طرقت باب غرفة الانتظار فحضر أحد الحراس، وعندها طلبت منه أن يبلّغ «كوهين» أنني انتهيت مما طلبه مني، وما هي إلاّ دقائق حتى اصطحبني السجّان إلى غرفة الضابط «كوهين».

وهناك قدّمت لكوهين ما كتبته عن أولئك الأربعة، فأخذ يقرأ ما كتبت، ويسألني ويستفسر مني عن تفاصيل أكثر وأكثر، وبعد ذلك قال لي أنه سيتم إطلاق سراحي بعد عدة ساعات لكي أعود إلى أحد الحواجز على أطراف قريتي، ولذلك يجب علينا استغلال هذه الساعات القليلة بشكل جيد.

وقام بإعطائي جهاز هاتف جوّال، وأبلغني أن أتواصل معه من خلال هذا الجهاز عبر الضغط على رقم اثنين، مرة واحدة طويلة، وبعدها سوف يقوم الجهاز بالاتصال مباشرة بجهاز «كوهين»، وأبلغني أيضاً أن رقمه لن يظهر على جهازي أبداً عندما يرغب هو بالاتصال بي، بل سيظهر رقم يعود إلى أمي، فقلت له: وكيف يحدث ذلك؟، فقال لي: لا تشغل بالك في هذه الأمور، ولكن عندما ترى رقم هاتف أمك فيجب عليك الرد فوراً، وانتظار سماع الصوت، فإن كان صوت أمك فهذا يعني أن أمك هي المتصل، فأجب عليها بشكل طبيعي جداً، أما إن سمعت صوتي أنا، فتحدث معي وكأنك تتحدث مع أمك حتى لو كنت وحدك، فلا تذكر اسمي أبداً، فأنا منذ اليوم أمك. وهكذا، إذا وقع هذا الهاتف في يد أحد ما، فلن يجد داخل ذاكرته ما يشير إلى أي شبهة تضر بك، فأنت غالٍ عندنا يا سيد «حكيم»... الشيء الثاني: إذا ما حدث وأن التقيت مع شخص ما وأردت أن ينتقل حديثكما إلى جهاز التسجيل الخاص بي، فعليك الضغط على الكبسة المرسوم عليها نجمة ضغطةً طويلة، وبعد ذلك يقوم جهاز هاتفك النقال بإرسال كلّ الحديث الذي يدور بينك وبين أي شخص إلي مباشرةً من خلال جهاز تسجيل موجود عندي.

«حكيم»، يجب أن تعلم أنني لم أوافق على عملك معي في جهاز الشاباك إلاّ بعد أن تأكدت من خلال فحصك على جهاز كشف الصدق، ومن خلال التقارير التي زودني بها من راقبوا تصرفاتك خلال وجودك في السجن، وخلال الأسبوعين الماضيين أيضاً، بأنك صادق بكل ما قلته بنسبة مئة بالمئة، وهذا شيء بقدر ما هو جيد هو أيضاً مخيف، ولذلك اعلم يا «حكيم» أن عينيّ لن تغفلا عنك أبداً... واعلم أيضاً أنك إن بقيت على ولائك المطلق لي ولجهاز الشاباك، فسوف أجعل منك شخصاً مهماً جداً.

أما إن خنتني، فسوف أجعلك عبرة، ولن أكتفي بقتلك فقط، بل سوف أفعل المزيد، ولا تسألني عن المزيد، ولكن اعلم أن جزءاً صغيراً من هذا المزيد هو محادثاتك معي، فمنذ اليوم الأول وحتى هذا اليوم قد جرى تسجيل كلّ ما قلته لي بالصوت والصورة، فأنت يا «حكيم» من طلبت أن تكون جاسوساً وعميلاً لنا... طلبت ذلك وأصررت عليه أيضاً.. فإياك أن تغدر بي حتى لا أغدر بك أنا أيضاً.

بعد ذلك أعطاني «كوهين» الهاتف النقال، وأعطاني مبلغاً من المال، وطلب مني أن أنفق هذا المال على التقرّب من بعض الطلبة الجامعيين الذين أعطاني أسماءهم، ولقد كانت أسماؤهم هي:

١. أحمد... وهو أخ لأحد المطلوبين للصهاينة، واسمه صابر.

٢. تامر...وهو ابن لأحد قادة الفصائل الفلسطينية، واسمه...

أما بالنسبة لكلّ من شوكت وفادي وبشار وصبحي، فلقد طلب مني أن أبلغ «شوكت» برغبتي في العمل معه داخل التنظيم الذي ينتمي هو إليه، وطلب مني أيضاً أن أبلغ «فادي» و«صبحي» بعدم رغبتي في الانضمام إليهما أو إلى تنظيماتهما. أما بشار، فقد طلب مني «كوهين» أن أصاحبه وأصادقه وأبلغه برغبتي الشديدة في الانتماء إلى التنظيم الذي يعمل هو بإطاره، وأبلغني بضرورة إبلاغ كل من «شوكت» و«بشار» بأني أريد أن يبقى موضوع انضمامي إليهما وإلى تنظيمهما سراً مكتوماً.

ما إن وصلت إلى الحاجز العسكري المؤدي إلى قريتي، حتى كان خبر وصولي قد سبقني إلى القرية، وقد سبقه أيضاً بعدة ساعات خبر اعتقالي صباحاً، وأنا متوجه إلى الجامعة؛ فالأخبار تصل سريعاً جداً، خاصة أنني عندما اعتقلت كان بصحبتي في السيارة التي كنت استقلها عدد من الطلاب الذين يعرفونني، ويبدو أنهم قاموا بإبلاغ أهلي وأهل قريتي عمّا حدث لي من اعتقال على يد قوات الاحتلال المتواجدة على الحاجز العسكري.

ما إن دخلت القرية، حتى تعالت الزغاريد مرحبةً بإطلاق سراحي. وبعدها اجتمع في بيت جدي المهنئون والمستفسرون عما قد جرى معي... وبالطبع كان الأربعة موجودين بين المستقبلين والمهنئين، فيبدو أن تكرار اعتقالي قد جعل مني بطلاً من حيث لا أدري.

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى الجامعة، وهناك أيضاً كان الترحاب بي ممتازاً، رغم أنني كنت طالباً جديداً نسبياً، إلاّ أنني أصبحت علماً معروفاً بشكل كبير. فرغم كوني جاسوساً مستتراً إلاّ أنّي ما زلت أخاً لشهيدين، وأخاً لأسير من ذوي الأحكام العالية.

تركت سكني في عمارة سكن الطلاب القريبة من الجامعة، وعدت لأسكن في منزل جدي، كما طلب مني «كوهين». وفي أول ليلة لي في القرية بعد عودتي إليها، قابلت شوكت وأبلغته بأنني أريد العمل معه في تنظيمه، فسرّ كثيراً وأعطاني بعض الكراسات التي تتحدث عن ذلك التنظيم، وطلب مني الاطلاع عليها؛ حتى أتمكّن من فهم هيكلية عمل التنظيم بشكل عام.

ولقد طلبت من شوكت أن يكون عملي معه في التنظيم بشكل سري جداً، فأنا أخشى أن يتم اعتقالي مرة أخرى إذا ما كشف خبر انضمامي لأحد الفصائل الفلسطينية.

وما إن أنهيت حديثي مع «شوكت»، حتى بحثت عن «بشار» وأخبرته هو الآخر أنني أرغب في الانضمام إلى فصيله المقاتل، وطلبت منه أيضاً ما طلبته من «شوكت»، أي: أن يكتم خبر انضمامي إليه عمّن لا علاقة مباشرة لهم بعملي في التنظيم.

أما فادي وصبحي، فلقد التقيتهما بعد عدة أيام، وأخبرتهما أنني أرغب بإكمال دراستي ولا أريد الانضمام لأي من التنظيمات الفلسطينية... فأبديا استياءهما في البداية، ولكنهما تفهّما ما قلته لهما، خاصة عندما ذكرت لهما أنه يكفي أن تفقد أمٌ ثلاثة أبناء: اثنين شهيدين والثالث أسير، فإن فقدتني أنا الآخر، فلن يبقى لها أحد من أبنائها بعدي.

أما في الجامعة، فلقد تقرّبت من «أحمد» و«تامر»، وأصبحت أمضي ما يتبقى لي من الوقت بعد الدراسة مع أحدهما؛ فأحمد لم يكن صديقاً لتامر، ولم يكن بينهما أيّ معرفة أبداً، وكنت أطلع «كوهين» عما كان يجري معي أولاً بأول، وسجّلت له ما كان يجري من محادثات بيني وبين كلّ من سبق وذكرت أسماءهم، من خلال استعمالي لجهاز الهاتف النقال الذي كان «كوهين» قد زوّدني به.

بعد ذلك، صمت «حكيم» قليلاً، وقال لي: أنت طلبت مني أن أقص عليك قصتي حسب تسلسل أحداثها، وهذا الشيء سوف يأخذ وقتاً طويلاً جداً، وأياماً عديدة، وهذا سيجعل زوجتي تقلق على غيابي، فأنا متعوّد أن أكلمها كل يوم في الساعة الثامنة مساءً تحت أي ظرف كان، فإن لم أكلمها ستهرب هي وأبوها، فكلاهما جاسوسان وعميلان أيضاً، فأبو زوجتي هو جاسوس كبير يتعاون مع جهاز الشاباك الصهيوني منذ عشرات السنين، وقبل أن أولد أنا أصلاً، وزوجتي أيضاً تعمل مع الشاباك قبل أن أتزوجها. ولذلك، إن أردت أن تجمع الخيوط بين يديك، فالأفضل لك أن تبادر إلى اعتقالهما قبل الساعة الثامنة مساءً وإلاّ فرّا من منزلي، فأبو زوجتي يعيش عندي في المنزل منذ عدة أشهر.

إن أردتني أن أكمل قصتي وسرد تفاصيلها خطوةً خطوة كما طلبت، فأنا حاضر، وإن أردت أن تقبض على تلك الجاسوسة ووالدها، فأنت حر.

عندها قلت لحكيم: أقسم بربي إن كان كلامك كاذباً، فسوف أجعلك تتمنى الموت ألف ألف مرة من شدة ما سأفعله بك من عذاب، فأجابني «حكيم»: أنا لن أقسم لك بالله، فأنا لم أصلّ يوماً في حياتي، ولا أدري إن كنت مؤمناً أن هنالك إلهاً أصلاً، ولكني مؤمن بأنني أريد البوح بكل ما أملك من معلومات وأسرار بين ضلوعي...

فأنا ما عدت أحتمل حقارتي ودناءتي أكثر من ذلك، وأتمنى الموت منذ زمن، منذ أن بعت دماء إخواني بثمن بخس... ثمن جعلني أحقر وأرذل خلق الله... الله الذي حلفت به أنت... اذهب يا من لا أعرف اسمك لاعتقالهما قبل أن يفرا ويعيثا فساداً وخراباً في مدينة أخرى غير مدينتك هذه، فلقد سبق لهما أن عاثا خراباً في مدن أخرى قبل أن يستقر بهما الحال هنا في مدينتك، يا من لا اسم لك عندي.

عندها قلت له: أنت ميت بإذن الله عز وجل لا محالة. ولذلك اسمع واحفظ اسمي جيداً يا سيد «حكيم»، أنا شهاب... وأظن أنك قد سمعت بي من قبل، فكّر فيما ستقوله لي بعد أن أعود، فلن أطيل الغياب عنك يا بطل...! بطل، ألم يكن الضابط المسؤول عنك «كوهين» يناديك بهذا اللقب يا بطل؟

تركت الجاسوس «حكيم» في القبو بعد أن تأكدت من أن القيد مشدود على يديه وقدميه بشكلٍ جيد، ثم أغلقت باب القبو وصعدت إلى أعلى.

صعدت وأنا شبه متأكد من أن «حكيم» يقول الصدق، وبخاصة أن ما قد سبق وقاله عن «شوكت» و«فادي» و«بشار» و«صبحي»، وعن «أحمد» و«تامر»، كان واضحاً وصحيحاً أيضاً. ولذلك، فقد ملت إلى تصديق ما قاله عن زوجته ووالدها، وقمت أنا و«علي» بوضع خطتين: أولاهما كانت تهدف للتأكد مما قاله «حكيم»، وثانيهما كانت تهدف إلى الإيقاع بهما واعتقالهما.

وهكذا، قمت بإرسال مجموعة من المقاومين لكي يقوموا بتركيب جهاز إلكتروني، مهمته قطع إرسال واستقبال بث أجهزة الهاتف المحمول بجوار منزل «حكيم»، ليقوموا بمراقبة المكالمات الهاتفية عبر الشبكة الأرضية من خلال سيطرتهم على خط الهاتف السلكي الخاص بمنزل «حكيم».

مضت عدة ساعات دون أن يقوم أيّ منهما باستعمال الهاتف الأرضي، رغم انقطاع موجة الاتصال عبر الهاتف النقال، وما إن تجاوزت الساعة الثامنة بنحو نصف ساعة، حتى اتصل رجل من داخل منزل «حكيم» وتحدّث مع شخصٍ آخر: سأله إن كان بث الهواتف الجوالة في منطقته يعمل، فأجابه ذلك الشخص بالإيجاب، فشكره وأغلق السماعة وما هي إلا عدة دقائق تلت الاتصال الأول، حتى قام نفس الرجل بإجراء اتصالٍ ثانٍ مع شخص أجابه في بادئ الأمر باللغة العربية، ثم تحوّلت المكالمة إلى اللغة العبرية التي كنت أجيدها إجادةً مطلقة. ومع ذلك، لم أتمكّن من فهم أيّ كلمة قالاها، فقد كانا يتحدثان برموز غير مفهومة بالنسبة لي، وسرعان ما انتهت المكالمة التي لم أفهم منها شيئاً.

بعد ذلك أخبرني أحد رجال الرصد أن هناك رجلاً كبيراً في العمر وامرأة تحمل معها حقيبة، خرجا من بيت «حكيم»، وركبا في سيارة كانت في كراج المنزل، فأمرته بأن يقوم هو ومن معه بإيقاف السيارة بعد أن تغادر البيت واعتقال من فيها، واقتيادهما إلى بيت آخر غير البيت الذي كان بداخله الجاسوس «حكيم». وفعلاً، وبحمد الله، تمكن «علي» ومن معه من اعتقال الفتاة ووالدها، واقتيادهما مع سيارتهما إلى البيت الآخر. أما أنا، فقد داهمت مع من كان معي من مقاومين منزل «حكيم» بهدوء، وبدون أن نثير ضجة، وقمت بتفتيش المنزل، وأخذ كل ما يحتويه من مواد قد يكون لها علاقة بعمله التجسسي، من أجهزة حاسوب وأجهزة اتصال، والتي وجدت منها العشرات، ثم عدت مسرعاً إلى «حكيم» في القبو، وسألته إن كان يحتفظ في منزله بأدوات تجسس، أو أوراق أو مستندات، فأجابني بالإيجاب، وأرشدني إلى مكانها، فعدت إلى بيته مرةً أخرى، وأخرجت كل ما أخبرني عنه، بالإضافة إلى كل ما يدل على أنه كان يسكن هذا البيت؛ من عقدٍ للإيجار، ومتعلقات شخصية، له ولزوجته ووالدها، ولم أترك في المنزل سوى الأثاث فقط لا غير.

في تلك الأثناء، كان «علي» قد قام بفحص السيارة التي كانت زوجة «حكيم» تقودها عند اعتقالها مع والدها، وتأكد أنها لا تحتوي على جهاز تحديد مواقع. وكما شارك «علي» في البحث وفي تركيب أجهزة قطع الإشارة؛ فقد كان مقاوماً ذا ملكات هندسية متميزة.

بعد ذلك، طلبت من الذين كانوا معي أن ينقلوا كل ما وجدناه وأخذناه من منزل «حكيم» إلى البيت الذي يقبع «حكيم» داخل قبوه، أما أنا، فقد توجهت إلى المنزل الآخر، حيث كان هناك «علي» ومن معه؛ من مقاومين ومن عملاء وجواسيس، وما إن وصلت ورآني «علي». حتى رأيت وجهه ضاحكاً باسماً على غير عادته في مثل تلك المواقف التي تتطلّب الجديّة والصرامة، فاستغربت ذلك، ولكني لم أسأله عن سبب ضحكته المكتومة، حتى أنني شاهدت نفس تلك التعابير على أوجه من كان معه من مقاومين.

طلبت من «علي» أن يرشدني إلى المكان الذي وضع فيه الرجل الكبير في السن. وعندها أدخلني إلى غرفة لم تكن تحتوي على أيّ شباك، وهي أقرب ما يكون إلى زنزانة من كونها غرفة للنوم؛ فهذا المنزل هو منزل قديم جداً، من تلك المنازل التي يصل عرض جدرانها إلى نحو متر وأكثر في بعض الأماكن. والأهم أن ذلك البيت يقع في وسط قطعة من الأرض، بحيث لا يمكن لأحد سماع ما يجري داخله؛ فهو يحتوي أيضاً على مزرعة للدجاج في إحدى أطراف الأرض المحيطة به والتابعة لصاحبه أيضاً.

دخلت على ذلك الكهل الذي كان اسمه «نضير»، وهو الاسم الذي كنت قد قرأته على بطاقة هويته التي أعطاني إياها «علي»، ووجدته مكبلاً ومغطى الرأس أيضاً، وهو يجلس مُكوَّماً في إحدى زوايا الغرفة.

ارتديت قناعاً أسود على الرأس، ورفعت عنه الكيس الأسود الذي كان يحجب رؤيته، وعندها قلت له: هل تعلم من أنا؟ فهز رأسه بالنفي، فأجبته: أنا موتك يا سيد «نضير»، موتك الذي تأخر أعواماً طويلة جداً بطول أعوام عمالتك مع العدو الصهيوني.

لقد وقعت ولم يكن وقوعك عندي وحدك، بل كان وقوعك جزءاً من وقوع تلك الشبكة التي أدرتها منذ عشرات السنين... اعلم أنني سوف أنتزع روحك من جسدك، مثلما تنتزع زهرة القطن من حقل الأشواك، لن يكون موتك سريعاً، إلاّ إن كنت تطيع أمري، مثلما فعل من قبلك من عناصر شبكتك التجسسية.

سأتركك لكي تفكّر على أقل من مهلك، إن كنت تريد البوح بكل ما عندك دون لفٍ أو دوران، أو إن كنت تريد الموت على يدي بالكثير الكثير من الألم... فكّر جيداً فسوف أعود إليك عندك أتأكد أنك قررت أن تبوح بما عندك لي.

تركته وأنا واثق أنه جاسوس كبير، رغم أنه لم ينطق ولا حتى بكلمة فقد قرّر «نضير» أن يحافظ على صمته، ووجدت «عليّاً» عند الغرفة التي توجد فيها زوجة «حكيم» «سارة»، وذلك كان اسمها الذي قرأته على بطاقة هويتها، أشار لي «علي» إلى باب الغرفة. وقبل أن أتوجّه نحو الباب، قال لي: إنها غير مكبّلة، وإنها أيضاً غير مغطاة الرأس، ولذلك عليك وضع قناعك الذي نزعته بعد خروجك من غرفة والدها «نضير»، عندها سألته عن سبب عدم تكبيلها ووضع الكيس على رأسها، فأجاب: لم أستطع، فلقد كانت أقوى مني ومن أولئك المقاومين الذين معي، كانت أقوى منّا بكثير، فإن استطعت أنت يا شيخ شهاب أن تكبّلها فإنك سوف تكون أكثرنا قوةً، فقلت لعلي: ألا ترى أن قوتي الجسدية أقل من نصف قوتك أنت يا «علي»، فكيف لي أن أتمكن من تكبيلها ما دامت قوية، ولم تستطيعوا أنتم تكبيلها؟. فقال علي: هي أقل منك وزناً، فلا تقلق من هذه الناحية، ولكن يجب أن تقلق من ناحية أخرى.. عندها ارتسمت الضحكة مرة أخرى على وجه «علي».

توجهت نحو الباب ووضعت قناعي على رأسي، ثم طرقت الباب عدة طرقات، ودخلت... ويا ليتني ما دخلت! وجدتها واقفة أمامي مباشرة عند دخولي عليها في الغرفة، لكني لم أر امرأة أو فتاة خائفةً مرتجفة كما كنت أتوقع، فلقد تخيّلت أن تكون زوجة «حكيم» «سارة» قد أصيبت بنوبة من الهستيريا نتيجة اعتقالها على يد المقاومين.

لكنها كانت هادئة ذات عيون وقحة، ترتدي ملابس فاضحة، دخلت عليها فلم تقل سوى جملة واحدة لحظة دخولي: هل أحضرت علبة سجائري؟ كنت طلبت منك أم أنك تنتظر أوامر سيدك؟ ما إن أنهت جملتها تلك، حتى أدركت ما كان يرمي إليه «علي» عندما قال أنها أقوى منه ومن المقاومين الذين كانوا معه، فهي قوية بفجورها ووقاحتها.

صفعت تلك الوقحة صفعتين قويتين، وقعت بعدهما أرضاً، ثم أتبعت الصفعتين بركلة قوية جداً على بطنها، قذفت بها إلى أحد أركان الغرفة، ثم وضعت على رأسها غطاءً أسود جعلها غير مبصرة، وقلت لها: إن نزعت عنك القناع سوف أنزع أظافرك من أصابع يديك. ما إن وضعت القناع وقلت ما قلته حتى بدأت على الفور بالبكاء والنحيب، فخرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفي بقوة، ثم نظرت إلى «علي» ومن كان معه من مقاومين، فاخترت أحدهم وقد كان صاحب جسد متوسط الحجم، وأقل من المتوسط، وطلبت منه أن يخلع ملابسه في إحدى الغرف المجاورة، وأن يجعل أحد الإخوة يحضر لي ملابسه، وفعلاً فعل ما أمرته به، فلقد كانت تعابير وجهي تدل على الغضب الشديد جداً، مما جعل «علي» يمسح تلك الضحكة التي كانت مرسومةً على وجهه.

أخذت الملابس ودخلت الغرفة مرةً أخرى على «سارة» دون أن أطرق الباب، كما كنت قد فعلت سابقاً، ألقيت الملابس التي كانت معي على «سارة»، وقلت لها بعد أن نزعت عنها غطاء الرأس، بأن ترتدي ما أحضرته من ملابس سوداء خشنة ذات رائحة، ملؤها الرصاص ودخان النار.

توقعت مني أن أخرج من الغرفة لكي أفتح لها المجال لكي ترتدي ما أحضرت من ملابس، إلاّ أني قلت قبل أن تستجمع قواها بعد ما لقيته مني من صفعٍ وركل، بأن ترتدي تلك الملابس فوق ملابسها... ملابس العاهرات، فقامت على الفور بارتداء البنطال والقميص فوق ملابسها، ثم وضعت على رأسها الكيس وكبلتها، وقلت لها: إن سمعت صوتك، فسأبدأ بخلع أظافرك. مفهوم يا أيتها العميلة الجاسوسة. أريد منك الآن أن تجلسي مع نفسك لكي تفكري فيما سوف تقولينه لي، فكّري جيداً فأنا أكره الكاذبين.

عندما أعود يجب أن تكوني قد أنهيت تفكيرك واستعددت لسرد قصتك. واعلمي، يا «سارة»، أن شبكة التجسس التي أدارها والدك ثم زوجك أصبحت بكامل عناصرها بين يدي، وتحت قبضة آلة التعذيب. ولذلك إن أردت المحافظة على عينيك من العمى، كوني صادقة؛ فالصدق فقط هو ما سوف يحرمني متعة تعذيبك.

تركتها وكأنها خرقة بالية ترتجف، وذلك بفعل ما أصبحت ترتديه من ملابس عسكرية سوداء، وخرجت من الغرفة للتحدث مع «علي»، فوجدته جالساً مع المهندس يتبادلان أطراف الحديث؛ طلبت من المهندس أن يتوجّه على الفور إلى بيت القبو، حيث يوجد «حكيم» والأجهزة التي حصلنا عليها من منزله؛ تلك الأجهزة التي كانت تمثل عدة حواسيب، وهواتف نقالة، وأجهزة إلكترونية أخرى لم أستطع تحديد ماهية عملها، إلاّ أن «حكيم» قال: إنه كان يستخدمها للتجسس.

توجّه المهندس مصطحباً معه أحد الإخوة الذين عرف عنهم سرعة البديهة والذاكرة القوية، لكي يساعده على فرز وأرشفة ما سيقومان بفحصه من أجهزةٍ وأوراق.

أما علي، فقد طلبت منه أن يتولى هو بنفسه موضوع التحقيق مع «نضير» حمي «حكيم» فأبدى استعداده. وعندها توجهت مصطحباً إياه إلى الغرفة التي تواجد بها «نضير» العجوز. وما إن دخلنا عليه الغرفة حتى وجدته كما كنت قد تركته، فقد كان ما يزال مُكوماً في إحدى زوايا الغرفة، ومكبّلاً من قدميه ويديه، ومغطى الرأس أيضاً.

عندما دخلت، كنت قد اصطحبت معي، بالإضافة إلى «علي» الذي سيتولى التحقيق، كاميرا لتصوير كل ما يقوله هذا الكهل «نضير»، وتسجيله حتى أستطيع الاطلاع عليه عند عودتي...

جلس علي أمام الكهل «نضير» ووضعت الكاميرا خلفه لكي تُصوِّر وجه الكهل «نضير» وصوته، ثم رفعت الغطاء عن رأسه بعد أن كنت أنا و«علي» قد وضعنا أقنعة على وجهينا.

ضغطت على زر تشغيل الكاميرا، وقلت لـ «علي»: توكّل على الله، وقلت للكهل «نضير»: أتمنى أن تكون قد حسمت أمرك، بعد أن فكّرت كما طلبت منك. وعندها هزّ «نضير» الكهل رأسه، وقال: نعم أنا جاهز، وسأقول لكم كل ما أعرفه بدون لفٍ أو دوران كما أمرت.. فأنا، كما ترى، رجل كبير لا أريد أن أتعرض للتعذيب أو الضرب، ولذلك سأريح نفسي وأفرغ كلّ ما في ذاكرتي لكم.

عندها، قلت لـ «علي»: وداعاً، وتركته يتولى إدارة الحديث مع الكهل «نضير»، وتركت الغرفة متجهاً إلى خارج المنزل...

ركبت سيارتي مصطحباً معي أحد المرافقين، وتوجهت لزيارة صديق لي يعمل هو وزوجته محاميين، عندما توقفت عجلة سيارتي نظرت إلى الساعة فكانت تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، وهذا كان يعني عدة أمور: أولاً أن عملية الحصاد قد مضى على بدئها نحو اثنتي عشرة ساعة بالتمام والكمال، حيثُ تم اعتقال «حكيم» في صباح اليوم وقبل الظهر بقليل، أي: في تمام الساعة الحادية عشرة قبل الظهر. ويعني ثانياً أن الكهل «نضير» وابنته «سارة» قد مضى على اعتقالهما نحو ساعتين لا غير. ويعني أيضاً أنه لم يتبق لدي إلا نحو ست أو سبع ساعات لكي أنهي عملية الحصاد إذا ما أردت أن أعتقل باقي شبكة التجسس قبل طلوع فجر اليوم التالي.

وهذا يعني أيضاً أن صديقي المحامي «خليل» وزوجته «مرام» وطفلتيهما نائمون الآن استعداداً للذهاب إلى العمل وإلى المدرسة غداً، وهذا يعني حكماً أنني ما زلت قليل الذوق؛ إذ إنني لم أتصل هاتفياً بـ«خليل» قبل أن أطرق باب منزله. إلاّ أن «خليل» كان معتاداً على قلّة ذوقي، بل معتاداً على عدم استعمالي لأجهزة الاتصال منذ فترة طويلة؛ فهو يعلم أنني مطارد ومطلوب لقوات الاحتلال من جهة، ومطارد ومطلوب من قوات السلطة من جهة أخرى، ولذلك رحّب بقدومي بمجرد أن فتح لي الباب، وهو يفرك عينيه من شدة النعاس.

ما إن أجلسني، حتى قلت له: إنني محتاج لك ولزوجتك أيضاً في أمر مهم للغاية، وقد يتطلّب هذا الأمر قضاء الساعات السبع القادمة خارج المنزل. فقال لي: هل هناك مصيبة جديدة؟. فقلت: لا، بل هناك ثلاث مصائب جديدة، وقد يكون هناك أكثر... الأهم أن إحدى المصائب هي امرأة؛ ولذلك، أريد منك أن تحضر زوجتك المحامية «مرام» معك. أعلمُ أنها لم تقم بمثل هذا العمل من قبل، أي: أنها لم تحقق مع عملاء سابقاً، لكن اعلم أنك ستكون إلى جانبها في هذا التحقيق، لكي تتشاركا معاً في عصر الليمونة كي أحصل أنا على العصير.

تركت المحامي «خليلاً»، وتوجّهت نحو الباب، وقلت له: سأنتظره بسيارتي كي لا يتأخر، والاّ ينسى ارتداء ملابسه السوداء، وإحضار قناعه أيضاً، وأن يجعل زوجته المحامية «مرام» ترتدي عباءة سوداء، وأن تضع على وجهها النقاب الأسود أيضاً.. فقال لي ضاحكاً: لقد نسيت يا شيخي أهم شيءٍ على الإطلاق، فقلت: وما ذلك الذي نسيته؟ قال: ابنتيّ الصغيرتين، هل أحضرهما معي مرتديتين الأقنعة ومتسلحتين بألعاب الأطفال؟، أم أضعهما أمام أحد المساجد لكي يلتقطهما أحد ما ويودعهما في إحدى دور رعاية الأيتام؟... فقلت له: لا، بل تضعهما عند والدتك أو عند حماتك. فأجاب: أمي في القرية، فبيت عائلتنا هناك، وأنا أسكن المدينة مع زوجتي وابنتيّ لكي أكون قريباً من عملي، أما حماتي فلقد توفاها الله عز وجل منذ زمنٍ طويل، وهي أيضاً من ساكني القرية. فقلت له: أحضر معك الطفلتين، سأتولى أمر رعايتهما بنفسي، لا تقلق، فلدي أفضل مربية أطفال.

بعد نحو نصف ساعة، خرج «خليل» من منزله حاملاً على ذراعه إحدى طفلتيه، وتبعته زوجته «مرام» حاملة هي الأخرى الطفلة الثانية، ثم جلس الأربعة على الكرسي الخلفي في سيارتي... كانت الطفلتان صغيرتين جداً؛ إحداهما في الرابعة من العمر، والثانية لم تكمل عامها الثالث بعد.

قدت سيارتي إلى الحي القريب من منزل والدي ووالدتي، وبعد ذلك ترجّلت من السيارة وطلبت من مرافقي أن يقود السيارة نحو بيت عائلتي، وهناك يطرق الباب على والدي ويضع الطفلتين أمانةً عند أمي... وفعلاً، توجه مرافقي مصطحباً «خليلاً» وزوجته وطفلتيه إلى منزل أهلي؛ فلقد كان منزلي مراقباً من قبل أجهزة أمن السلطة ومن قبل أجهزة أمن الاحتلال، ولم يكن من الممكن أن

أتوجّه أنا إلى ذلك المنزل، خاصةً في مثل هذا الوقت المتأخر؛ فالساعة قد قاربت منتصف الليل، أما مرافقي فلم يكن مطلوباً من الناحية الأمنية، والسيارة التي كنت أقودها مسجلة أصلاً باسم ذلك المرافق، وهو أحد أقاربي من الدرجة الأولى. فلذلك لم يكن يشكّل عبر زيارته لمنزل أهلي أيّ شكوك أو خطر أمني عليَّ أنا.

أوصل المرافق الطفلتين عند أمي، وهي بالمناسبة عمته، وقال لها: ضعي هذه الأمانة بين رموش عينيك يا حجة أمّ «شهاب» حتى أعود لأخذها في الصباح الباكر بإذن الله تعالى... ثم عاد ليلتقطني من أحد الشوارع الفرعية. وعندها توجهنا نحن الأربعة إلى مكان وجود «سارة» ووالدها، بعد أن حنى كل من «خليل» وزوجته «مرام» رأسيهما أسفل المقعد الخلفي لكي لا يشاهدا الطريق، ويتعرفا على عنوان المنزل كما جرت العادة قبل ذلك مع «خليل» عندما كان أحد المرافقين يحضره إليّ؛ فلقد كان «خليل»، رغم كونه محامياً، متميزاً وفذّاً، مقاوماً أيضا. لذلك، كان يقدّر الإجراءات الأمنية التي كنا نتّبعها؛ فهو، مثلاً، عندما ركب السيارة معي، هو وزوجته وطفلتاه، لم يكن يحمل معه جهاز الهاتف النقال، وكذلك زوجته. وبمجرد أن قلت له خذ قيلولة، قال لزوجته بأن تحني رأسها أسفل المقعد، وحنى هو رأسه أيضاً.

كان «خليل» من ذلك النوع الذي عشق المقاومة منذ نعومة أظفاره، فكان ناشطاً فاعلاً أثناء دراسته الجامعية، وكذلك زوجته «مرام» التي خطبها قبل أن ينهيا دراستهما الجامعية، وتزوجها فور تخرّجه من الجامعة، فهي بالإضافة إلى كونها زوجته، فهي أيضاً ابنة نفس القرية التي يسكن فيها، وابنة نفس التنظيم المقاوم الذي ينتمي إليه. ولذلك، شكّل حب «مرام» و«خليل» حباً لفلسطين، وحباً للمقاومة، وحباً للتضحية في سبيل الله عز وجل.

ما إن وصلنا إلى المكان المحدد، حتى اصطحبت «خليلاً» و«مرام» إلى إحدى الغرف الجانبية، وأخبرتهما هناك عن التفاصيل الأولية التي كنت أملكها، ولقد استدعيت «علياً» أيضاً لكي يقول لي ولهما ما قد توصّل هو إليه خلال الساعة الماضية من تحقيقه مع الكهل «نضير»، وبعد ذلك عاد «علي» لإكمال التحقيق، وتوجهت أنا و«خليل» و«مرام» نحو الغرفة التي كانت الجاسوسة «سارة» مكبّلةً في إحدى زواياها.

جلس «خليل» على كرسي، وجلست زوجته «مرام» على كرسي آخر قبالة الجاسوسة «سارة»، أما أنا فقد أدرت الكاميرا التي وضعتها قبالة «سارة»، وتأكدت من أن «خليلاً» يضع قناعه، ومن أن زوجته «مرام» تضع نقابها. وعندها نزعت الكيس الأسود السميك ذا الرائحة النتنة عن رأس «سارة»، وقلت لها: أعتقد الآن أنك قد أصبحت مستعدة للبوح بما عندك من أسرار وخبايا إن كان هناك أسرار أو خبايا لم أعد أعلمها بعد، فقد باح زوجك خلال الساعات الماضية بالكثير الكثير، وكذلك والدك باح هو الآخر بما كان عنده، ولذلك فأنا أنصحك لوجه الله تعالى ألاّ تكتمي شيئاً حتى لا أكتم النور عن عينيك كما وعدتك.

أنت الآن تستطيعين مشاهدة أخي «ريحي» - وهنا وضعت يدي على كتف «خليل» المحامي- وتستطيعين مشاهدة أختي «ريحية» التي تجلس بجواره، فإن أردت أن تحتفظي بنعمة البصر هذه، فعليك أن تحكي لهما، وبالتفصيل الممل، حكايتك منذ اليوم الأول الذي عرفت فيه أن والدك الكهل «نضير» جاسوس، ثم كيف أصبحت أنت جاسوسة؟ وكيف ساعدته في أعماله؟ وصولاً إلى زواجك من «حكيم» وتعاونك معه في أعماله القذرة حتى يومك هذا... يومك الذي ما زلت تبصرين النور فيه من خلال عينيك.

أشرت لـ «الخليل» أن يتولى هو أمر إدارة الحوار والتحقيق، وانتظرت قليلاً حتى أسمع ما ستقوله الجاسوسة «سارة» قبل أن أغادر لإكمال عملي.

وعندها، قالت «سارة»: هل تعلمون أن أمي يهودية، وأنها سوف تقلب الدنيا رأساً على عقب حتى تصل إليكم، وتستعيدني من بين قبضتكم؛ فأنا لست مثل أبي عربياً فلسطينيّاً حقيراً، أو مثل زوجي ذلك الأبله الغبي «حكيم»، أنا يهودية... ولذلك سوف تعمل كل أجهزة الأمن الإسرائيلي على إنقاذ حياتي أيها الثوار السُذَّج.

في تلك اللحظة، قامت «مرام» ووجهت لكمةً قويةً جداً نحو عين «سارة» اليمنى، وأتبعتها بلكمتين أخريين نحو نفس العين، وقالت لها: حتى تصل أمك اليهودية ويصل معهما جيشها الجرّار من عملاء الشاباك وقوات الاحتلال، سوف يصل الظلام أولاً إلى نور عينيك، وعندها سوف تكونين عمياء ومشوّهة الوجه بشكل لا يمكن لعمليات التجميل أن تصلحه... لذلك ومن هذه اللحظة، وحتى يصل جيش أمك الجرار، عليك أن تجيبي أخي «ريحي»، وتجيبيني أنا عن كل ما سأسألك عنه... مفهوم يا «سارة»؟.

عندما قالت المحامية «مرام» كلمة مفهوم، أحسست أنني أنا من قال تلك الكلمة، وأدركت أن مقدرة «مرام» وحماستها كبيرتان تماماً مثل مقدرة زوجها على التعامل مع مثل هذه المواضيع، أما مقدرة عين «سارة» فلم تكن قوية، فلقد أصبحت ذات لون يميل إلى الحمرة والتورّم بشكلٍ سريع.

وعندها، بدأت «سارة» بالكلام بعد أن أدركت أن وجود فتاة معنا في غرفة التحقيق هو عامل قوةٍ لنا نحن المحققين الثلاثة، وليس عامل ضعف، بل أظن أن «سارة» قد أدركت أن وجود هذا العدد من المحققين يدلّ على أنها قد خرجت تماماً من سيطرتها وتسلطها المزعوم. فيبدو أنها كانت قبل اعتقالها قويةً متسلطةً بشكل كبير على زوجها، وحتى على والدها الذي رغم كونه جاسوساً قديماً إلاّ أنه كان أضعف منها بكثير.

على هذه الحال، تركت الغرفة واثقاً بأن الله سيمكّن الزوجين من عصر الليمونة عصراً جيداً، لكي يخرج ما بداخلها من عصير مليء بالمعلومات التي تهم المقاومة وتفيدها.

طلبت من مرافقي أن يوصلني إلى بيت القبو، حيث يوجد الجاسوس «حكيم»، والمهندس ومساعده... وهناك، بحمد الله، وصلت.

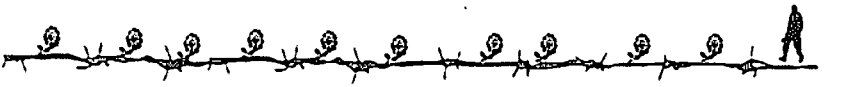

حصاد أول الطريق

حصاد أول الطريق

ما إن وصلت إلى بيت القبو حتى وجدت «إياد» عضلات غاضباً جداً، ولا أذكر أنني قد شاهدته على هذه الحالة منذ أن عرفته، حتى عندما أطلقت الرصاص نحوه. وعندما سألته عن سبب غضبه البادي عليه، قال: لقد قتلوا جميعاً... لقد تم تصفيتهم واحداً تلو الآخر، ولم يبقَ منهم أحد... عندها قلت لـ«إياد» عضلات: أتقصد الستة، قال: لا، بل الثمانية... الثمانية كلهم قتلوا.

كان «إياد» يتحدث عن «شوكت» و«فادي» و«صبحي» و«بشار» أبناء قرية «حكيم» وعن «أحمد» وأخيه «صابر» وعن «تامر» وأبيه القائد لأحد الفصائل الفلسطينية، الطالبين اللذين كانا يدرسان معه في الجامعة قبل أعوام.

فلقد كنت قد كلّفت «إياد» عضلات واحد الإخوة الذي كان باستطاعته التحرّك لكونه غير مطلوب أمنياً بالتحرّي عنهم، ووجد هذا الأخ أن هؤلاء الأشخاص الثمانية قد تمت تصفيتهم على يد قوات الاحتلال الصهيوني خلال أعوام سابقة، وهذا ما أبلغه لـ«إياد» مما أثار غضبه، وأفقده أعصابه، وجعله يرغب في إعدام «حكيم» على الفور، إلاّ أنه تمالك نفسه خشية ردّة فعلي، كما قال لي.

فقلت لـ«إياد» عضلات: إننا لو أعدمنا «حكيم» الآن، لن نتمكن من تفكيك شبكته التجسسية، فنحن ما زلنا في بداية طريق الحصاد، ولقد أخبرته أننا تمكّناً من اعتقال عميلين آخرين عبر «حكيم»، هما زوجته «سارة» الجاسوسة وأبوها «نضير» الكهل، وهو أيضاً جاسوس.

عندها هدأ «إياد» عضلات بعد أن أدرك أن الموضوع أكبر من كونه ردّة فعل سريعة، قد تؤدي إلى قطع خيوط المعرفة التي تؤدي بنا إلى معرفة الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه، بهدف حماية المقاومة الفلسطينية؛ من عملاء جهاز الشاباك، والمخابرات الصهيونية، وجواسيسهما.

ذلك الجهاز الصهيوني الذي كانت ترتفع رتب ضباطه كلما قتلوا فلسطينياً مقاوماً، أو فلسطينياً طفلاً؛ لأنهم يعتقدون أنه سوف يشكّل خطراً على أمنهم عندما يكبر.

فلقد كنّا نتعامل مع جهازٍ كان في حقيقة الأمر أداةً لجمع المعلومات، وأداةً للقتل أيضاً.

ما إن انتهيت من «إياد» عضلات ومن ذلك الخبر الذي أغضبني وأحزنني كثيراً، رغم عدم معرفتي بأولئك الشهداء الثمانية، لأنهم من أبناء منطقة أخرى بعيدة جداً عن منطقتي، حتى جاءني مساعد المهندس ليبلغني أن المهندس يريد مقابلتي للأهمية القصوى، وعندها توجّهت على الفور نحو الغرفة التي كان بها المهندس، وكانت بها أيضاً الأدوات، والأوراق، والأجهزة الإلكترونية التي كنت قد طلبت منه فحصها وتصنيفها.

ما إن دخلت، حتى طلب مني الجلوس ووضع جهاز حاسوب نقّال أمامي، وقال لي: شاهد ما يلي.. وفعلاً، بدأت أشاهد ما كان عبارة عن أحد الملفات السريّة التي قد تمكّن المهندس من فتحها بطريقته الخاصة؛ يوجد في هذا الملف مذكرات يومية يدوّنها «حكيم» منذ أن دخل إلى الجامعة، مروراً بتجنيده للعمل لدى جهاز الشاباك، وصولاً إلى صباح يوم الأمس، ولقد كتب «حكيم» في هذا الملف السري ما لا يخطر على عقل بشر من تصرفات قام بها على مدى الأعوام الماضية.

حتى أنني عندما أمعنت النظر والقراءة في ما كان «حكيم» قد كتبه ودوّنه، وجدت أنني لم أعد بحاجة للتحقيق معه، فكلّ ما أريده موجود هنا بشكل مفصّل وواضح.

لقد كان هذا الجاسوس الحقير يكتب كل شيء قام به على مدار اليوم، محدداً الساعة والدقيقة، ثم كان في نهاية كل يوم يكاتب رئيسه بالأشخاص الذين التقى بهم.

إنني اكتشفت أن هناك مشكلة جديدة قد وقعت بها، وهي مشكلة الوقت؛ فلقد كانت هذه المذكرات على مدى اثني عشر عاماً، وهذا يعني أن عدد صفحات المذكرات سيكون بعدد أيام العام الواحد، أي: ٣٦٥ مضروباً في ١٢، وهو عدد الأشهر أي ٤٣٢٠ صفحة تقريباً. وإن كانت كل صفحة تحتاج إلى دقيقة واحدة فقط لا غير، فهذا معناه أنني مضطر إلى قراءة المذكرات خلال ٧٢ ساعة بشكلٍ متواصل، أي: ثلاثة أيام، لكني لم أكن أملك سوى ست ساعات قبل أن يستيقظ الناس، ويبدؤوا بالذهاب إلى أشغالهم وأعمالهم، وقبل أن ينتبه أحد إلى غياب «حكيم» وزوجته ووالدها؛ ذلك إن فرضت أن الشخص الذي تحدّث إليه «نضير» قبل أن أعتقله، لم يكن قد شك بشيء ما وحذّر الآخرين.

فأنا الآن لا أملك وقتاً لقراءته، ولا وقتاً لمجرد التفكير ولذلك، طلبت من المهندس ومساعده أن يقوما بفتح كل الملفات المغلقة، لعلّهما يتمكّنان من الوصول إلى ملف ما، يحتوي على قائمة من الأسماء أو العناوين التي قد تسهل علينا رسم شجرة تسلسلية لشبكة العملاء الذين جنّدهم «حكيم» أو تعامل معهم ضد المقاومة.

تركت المهندس بعد أن أخذت منه ورقة بيضاء كبيره وقلماً للتلوين، وتوجّهت نزولاً إلى القبو، حيث كان الجاسوس «حكيم» يجلس، وأخذت معي «إياد» عضلات والمقاوم الذي كان معه أيضاً.

دخلنا ثلاثتنا على «حكيم» دون أن نضع أقنعتنا، فلم يكن هناك حاجة لها بعد الآن؛ لأن «حكيم» لن يخرج من القبو حياً تحت أي ظرف كان.

طلبت من «إياد» عضلات، الذي كان لا يزال يعاني قليلاً جرّاء خدشه الذي سببته له، أن يقوم هو والمقاوم بفكّ قيود الجاسوس «حكيم» وكشف غطاء رأسه عنه.

وعند ذلك، وضعت الورقة البيضاء على الأرض، وأعطيت «حكيم» قلم التلوين، وقلت له: أريد منك أن تكتب اسمك في أسفل الورقة، فكتب... ثم قلت له: اكتب أسماء الجواسيس الذين تعاملت معهم في هذه المدينة، فكتب: «سارة» زوجتي و«نضير» والدها. فقلت: ألا يوجد غيرهما من الجواسيس في المدينة؟ فقال: لا أعلم إن كان هناك جواسيس أم لا. أما ما أعلمه أنا فهو أنني لم أتعاون في هذه المدينة سوى مع زوجتي ووالدها فقط لا غير.

فقلت: يبدو أنك قد اشتقت إلى سكّيني وإلى الألم الذي تسببه عندما أغرسها في جسدك.. فقال: لقد سبق وقلت لك أنني لن أراوغ، وأنني سوف أعطيك كل ما تطلبه من معلومات، ولقد أخبرتك عن زوجتي وأبيها، فهل تعتقد أن هناك أحداً أهم منهما يمكن لي أن أتستر عليه مثلاً، ولقد دللتك على مكان إخفائي لكل ما كنت أملك من أجهزة وأوراق دون أن أضيّع وقتك، وكنت مباشراً وصريحاً معك.

فقلت له: إذاً، كيف تفسر لي أنه لم يكن لك علاقة في هذه المدينة، رغم أنك تحتفظ بكل ما تملك من أجهزة وأوراق في بيتك الذي هو فيها؟ فقال: لقد انتقلت إلى هذه المدينة منذ نحو أربعة أشهر فقط، وكان سبب انتقالي هو أن الشك بدأ يدخل عقول من كانوا حولي من أقارب وأصدقاء في قريتي، خاصة بعد أن تزوّجت «سارة» قبل نحو عام، فلقد كانت تصرفات «سارة» الوقحة والخارجة عن الحياء تثير استغراب أهل قريتي كثيراً،

ورغم أنهم لم يكونوا يعلمون أن والدتها يهودية، إلاّ أن «سارة» ومن خلال تصرفاتها الطائشة وتعليقاتها الغبية كانت دائماً تثير المشاكل.

لذلك تركت القرية وقرّرت أن أستقر في هذه المدينة، وليس في المدينة المجاورة لقريتي، رغبةً مني بالابتعاد قدر الإمكان عن أيّ شبهات حتى لا يُكتشف أمري، وهذا التصرف أغضب الضابط المسؤول عني في جهاز الشاباك؛ ذلك الضابط الذي كان اسمه «يوري»، والذي تولى المسؤولية عن عملي بعد «كوهين».

فـ«يوري» هذا، لم يكن يرغب في أن أترك قريتي ومدينتي التي كنت قد شكّلت فيها شبكةً كبيرةً من العملاء على مدى الأعوام الاثني عشر الماضية. فإذا أردت فإني سأكتب لك عن تلك الشبكة بالتفصيل...

فقلت له: اتركنا الآن من شبكة عملاء مدينتك، وقل لي: ما علاقتك بالانفجار الذي تعرّضت له سيارة المقاوم «مدحت» الذي استشهد إثره؟ وما علاقتك بالقصف الذي تعرّض له منزل المقاوم «علي» الذي أدّى إلى استشهاد زوجته وأطفاله؟

فأجاب قائلاً: لقد كلّفني الضابط «يوري» بمراقبة «مدحت»، ثم طلب مني أن أحدّد له السيارة التي كان يستعملها أثناء تنقلاته، وبعد ذلك قام بإعطائي جهازا صغير الحجم لا يتجاوز حجمه حبة العدس، وطلب مني أن أضعه في أي جزء من أجزاء السيارة. وفعلاً، هذا ما قمت به؛ فلقد قمتُ بإلصاقه بجوار مرآة السيارة، ولأن حجم الجهاز كان صغيراً، لم يثر وجوده أو شكله شكوك أيّ أحد. وفي مساء نفس اليوم اتصلت بالضابط «يوري» وأخبرته بأن «مدحت» قد استقل السيارة، ولم تمرّ على مكالمتي سوى بضع دقائق حتى كانت إحدى طائرات الاستطلاع قد قصفت سيارة «مدحت» وحوّلتها إلى كومة من الحديد المشتعل.

«مدحت» الذي كان يتحدث عنه ذلك الجاسوس الحقير «حكيم»، كان أخي الأصغر والأقرب إلى قلبي، لكن ذلك الجاسوس «حكيم» حوّله بعمالته إلى كومة من الرماد المحترق. كان الحريق الذي اندلع في سيارة أخي «مدحت» كبيراً جداً، ولم تتمكن سيارة الإطفاء من السيطرة على الحريق إلاّ بعد فوات الأوان، حتى أننا عندما استخرجنا جثمانه أو ما تبقى منه، لم يكن وزنه سوى عدة كيلوغرامات من العظام المتفحمة.

كتمت دموعي وحبستها بين جفوني، وكتمت غيظي الذي كان قد استشاط كالبركان، مستذكراً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

وسألت ذلك النتن الحقير: وهل ساعدك أحد في هذه المهمة؟. فأجاب قائلاً: نعم، لقد كانت زوجتي ووالدها معي منذ اللحظة الأولى حتى نهاية المهمة، وكنا نستخدم سيارتي تارةً وسيارة زوجتي تارةً أخرى؛ من أجل عملية المراقبة، وكان والدها دائماً معنا من أجل التمويه، ولقد قامت زوجتي بمساعدتي عندما ألصقت جهاز التمويه على جنب باب السائق، فما لا تعلمه هو أن زوجتي ذات أعصاب قوية جداً، وهذا ما سهّل مهمة زرع الجهاز عبر إلصاقه.

وعندها قلت لحكيم: وهل كانت معك عندما كنت تراقب منزل المقاوم «علي» الذي قُصف واستشهدت زوجته وأطفاله...؟

فقال «حكيم»: أنا الذي كنت معها، فهي التي كانت مسؤولة عن تلك المهمة، بالإضافة إلى والدها «نضير»؛ كانت «سارة» زوجتي قد انتحلت شخصية عاملة اجتماعية، وزارت منزل «علي» بصحبة أبيها «نضير»، في تلك الزيارة قامت بدسّ أجهزة مراقبة وتنصّت في المنزل، ووضعت جزءاً من تلك الأجهزة في كراسي الجلوس عندما ذهبت زوجة «علي» لتحضر لها الماء الذي تحججت زوجتي أنها طلبته وأنها تريد شربه... ووضعت جهازاً آخر في الحمام عندما دخلته زوجتي «سارة» بحجة قضاء حاجتها به.

أما أنا، فقد كنت أنتظرهما في السيارة خارج المنزل، وما هي إلاّ عدة أيام حتى تمّ قصف المنزل بعدة صواريخ. ولكن الغريب أن «عليّاً» لم يقتل في عملية القصف... عدة ثوانٍ هي التي أنجى بها الله عز وجل «عليّاً» من قصف طائرات العدو، تلك الطائرات التي حصدت قنابلها الفتاكة أرواح أطفال «علي» وزوجته.

«علي» الذي يحقّق في هذه الأثناء مع «نضير» منذ عدة ساعات... آمل ألاّ يكون «علي» قد توصل بعد إلى معرفة أن «نضير» هو وابنته من قاما بزرع الأجهزة داخل منزله، وأنّهما اللذان تسببا في مقتل زوجته وأطفاله.

بعد ذلك، طلبت من المقاوم ومن «إياد» عضلات أن يكبّلاَ الجاسوس «حكيم»، وأن يغلقا باب القبو، وصعدنا جميعاً إلى أعلى، وهناك ركبت السيارة مع مرافقي، وعدت مسرعاً إلى بيت المزرعة حيث يوجد «علي»، وصلت هناك ودخلت على «علي» فوراً، لكنني وجدت أنه لم يتوصّل بعد إلى سؤال «نضير» عن دوره فيما جرى لزوجته وأطفاله؛ فلقد كانا يتحدثان عن فترة زمنية قديمة جداً. وعندها تركته وتوجّهت نحو الغرفة الأخرى، حيث يوجد «خليل» وزوجته «مرام»، وعندها طلبت منهما الخروج فوراً من الغرفة، وقلت لـ «خليل»: إياك أن تفتح الباب مهما سمعت من صراخ وعويل، فهزّ رأسه موافقاً.

ما إن أغلق الباب، حتى سحبت سكيني من غمدها وغرستها في فخذ «سارة»، فصاحت ألماً وعلت صيحاتها، وعندها قلت «لسارة»: أين وضع جهاز تحديد الموقع؟ فأجابت: تحت الجلد في أعلى كاحل قدمي اليمنى. وعندها استدعيت مرام وطلبت منها البحث أعلى قدم سارة اليمنى عن جهاز صغير الحجم، فبدأت بتحسس موضع الجهاز ولكنها لم تتمكن من الوصول إليه فهو جهاز صغير لا يتجاوز حجمه حبة أرز واحدةٍ صغيرةٍ.

عندها حملت «سارة» على كتفي بعد أن غطيت وجهها بالغطاء الأسود وألقيتها في صندوق سيارتي، وطلبت من «علي» أن ينقل «نضير» إلى مكان آخر، وألاّ يحقق معه، وطلبت من «خليل» و«مرام» أن يعودا إلى منزلهما ويكتبا لي أهم النقاط التي توصلا إليها في تحقيقهما مع «سارة». أما أنا، فلقد أخذت «سارة» إلى أحد الحقول، وهناك أفرغت برأسها عدة طلقات، ثم ألقيت على جسدها كميةً كبيرةً من الوقود، ووضعت بعض إطارات السيارات، وأشعلت الوقود فاشتعلت الإطارات واشتعل جسد «سارة»... ذلك الجسد الذي كان يحتوي على جهاز يحدد مكانه، وتمّ ذلك كله دون أن تكون في سماء المدينة كلها أيّ طائرة استطلاع صهيونية، مما أكد لي أن الصهاينة لم ينتبهوا بعد لغياب «سارة» ابنة اليهودية، ولا غياب أبيها «نضير» ولا حتى غياب «حكيم» زوجها.

صحيح أن جسد «سارة» قد احترق، واحترق معه جهاز تحديد الموقع، إلاّ أن مسار حركة «سارة» قد تمّ رصده وتسجيله في جهاز تحديد تتبع المواقع، وهذا كان يعني أن المنزل الذي مكثت به «سارة» من الساعة التاسعة ولغاية الساعة الثانية فجراً قد تمّ تحديده وأصبح معلوماً. وهذا يعني أيضاً أن المنزل سوف يتعرض للهجوم والمداهمة، خاصة أنه يقع في أطراف المدينة، وهو قريب من المنطقة الحدودية أيضاً.

لا أعلم الدافع وراء غرسي للسكين في قدم «سارة»، ولكني أظن أن تبجّحها هو ما أشعل عندي ضوءاً أحمر، خاصة عندما علمت من «حكيم» أن والدة زوجته قد ماتت منذ فترة طويلة عندما كانت «سارة» لا تزال طفلة، مما جعلني أرجّح أن «سارة» كانت قد أطلقت اسم والدتها على الجهاز المزروع بجسدها، فهي على ما أظن كانت تعتبر هذا الجهاز ورقة ضمان لحياتها، ولكن وقاحتها وتبجّحها

جعلت من كشف الجهاز حكماً عليها بالإعدام فوراً، وخاصة أنها كانت قد تسببت في استشهاد زوجة «علي» وأطفاله... فاستشهادهم وحده كان كفيلاً بأن انفّذ بها حكم الإعدام دون أن أستشير أحداً من قادتي أو من رجال الدين، فإن لم أقتلها فسوف نقتل نحن، ولكن ألم تتسبب أيضاً في مراقبة أخي الأصغر مدحت؟. ألم تقم بمساعدة زوجها في زرع جهاز التتبع الذي حدّد موقع سيارة أخي وأدى لاستشهاده؟ ألم تكن تلك الفاجرة مع زوجها عندما اتصل بالضابط الصهيوني يوري ليبلغه بأن أخي صعد في السيارة؟ أوَلم تشاهد السيارة وهي تقصف وتتحول إلى كومةٍ من الحديد المحترق مع زوجها؟.

إذاً، فلتحترق «سارة» عقاباً لها على ما ارتكبته من جرائم بحقنا وبحق أهلنا؛ من خلال تعاونها القذر مع جهاز الشاباك الصهيوني المجرم.

عدت تاركاً النيران مشتعلة خلفي إلى المنزل، حيث تأكدت أن «عليّاً» قد غادر مصطحباً معه «نضير» كما لم أجد «خليلاً» وزوجته اللذين كانا قد عادا إلى منزلهما بعد أن أخذا طفلتيهما من عند والدتي، ولم أجد في المنزل سوى رسالةٍ من خليل يطلب منيّ الحضور إلى منزله على الفور. فطلبت من الحارس أن يرافقني بعد أن أغلقت المنزل، متأكدين أنه أصبح خالياً من أيّ شيء يدل على المقاومة.

ذهبت مع الحارس ومع مرافقي إلى منزل خليل، حيث وجدته بانتظاري، وعندما فتح لي الباب، وقبل أن يجلسني على أحد المقاعد، قام بإعطائي بضع أوراق، فقرأتها بدقائق معدودة، ثم شكرته على كل ما قام به هو وزوجته «مرام» وغادرتهما مسرعاً إلى بيت القبو.

هناك وجدت الكل في انتظاري على أحرّ من الجمر، فهم كانوا بحاجة إلى بعض الأجوبة على ما قمت بفعله مع «سارة» من قتلٍ وحرق، ومع «نضير» من نقل وإيقاف التحقيق معه، وعن الأمر الطارئ الذي أرادني لأجله المحامي «خليل»... رغم أنني كنت أمتلك إجابات أسئلتهم تلك، إلاّ أنني لم أكن أمتلك الوقت اللازم لكي أجيبهم عليها، فالساعة قد أصبحت الآن الثانية والنصف بعد منتصف الليل، والصبح يقترب بسرعة كبيرة جداً، وأنا ما زلت أحاول السيطرة على كافة الخيوط كي لا يقطع أحدها. ورغم تلك المحاولات، لكنّي اضطررت أنا بنفسي لقطع أحد تلك الخيوط عندما قتلت «سارة».

لم أجب على الأسئلة التي كانت باديةً في عيونهم، بل زدت عليها تساؤلاً آخر جديداً؛ عندما قلت لـ «علي» أن يقوم بإرسال أحد المرافقين لكي ينقل سيارة «سارة» من مكان إيقافها إلى أحد المدن المجاورة، وأن يتركها هناك بعد أن يقوم بإشعال النار فيها، فقام «علي» على الفور بإرسال مرافقين اثنين؛ أحدهما لكي يقود سيارة «سارة» والآخر لكي يتبعه بسيارة أخرى من أجل إعادته معه.

ما إن انطلق الاثنان، حتى طلبت من «علي» أن يرافقني هو والمهندس، وما إن صعدا السيارة حتى توجّهنا إلى أحد محلات بيع الملابس النسائية، وتوقفنا أمامه، وعندها نزلت وقمت بفتحه بالمفاتيح التي كانت بحوزتي، ولمّا أصبحنا نحن الثلاثة داخل المحل، قمت بإغلاقه علينا كي نفعل ما نريد دون أن يرانا أحد؛ ذلك المحل كان ملكاً لـ «سارة» تحتفظ به ببعض الأجهزة، فكانت عبارة عن أجهزة لحفظ الذاكرة المصوّرة والمسجلة؛ كانت «سارة» قد سجّلت عليها نسخةً عمّا كانت تقوم به من أعمالٍ قذرة، لكي تسقط ضعفاء النفوس في وحل العمالة لجهاز الشاباك الصهيوني.

جمعت كل ذلك بعد أن تأكّد المهندس من أن المحل أصبح خالياً بشكل كامل من أيّ شيء من تلك الأشياء التي كانت مكتوبة في الورقة التي أعطيته إياها... تلك الورقة التي أخذتها أنا قبل قليل من «خليل»؛ حيث كان مكتوباً فيها عنوان المحل، ومكان وجود مفاتيحه، ومكان وجود ما به من أجهزةٍ وأدوات. وهكذا، أكون قد حصدت آخر زرع «سارة» الفاسد. وقبل أن نغادر المحل، قمنا بتحويله لشعلة من نار.

الشمس لا تزال نائمة

الشمس لا تزال نائمة

حمدت الله العزيز الجبار أن الشمس لم تشرق بعد، وأنها لا تزال تغطّ بنومها أثناء سلوكنا لطريق وعرة إلى منزل القبو، قلت لـ«علي» وللمهندس عن سبب إقدامي على قتل «سارة»، وحرق جثتها، فتفهّما الموقف، وأدركا أن ما قمت به أنقذ حياتنا جميعاً. وعندها وبشكل تلقائي، تفهما سبب إرسالي لسيارتها لكي تحرق في إحدى المدن بعيداً عنا، ثم أدركا سبب عجلتي في الوصول إلى محل الملابس التابع لـ «سارة» قبل أن تصل إليه يد أجهزة أمن السلطة التي كانت بدورها سوف تسلم ما تجده هناك إلى أجهزة أمن الاحتلال والشاباك، مثل عادتها منذ أن وطئت أقدامها أرض فلسطين بعد اتفاق الخزي والعار، اتفاق أوسلو البغيض.

وأخبرتهم أيضاً أنني أعتقد أن ما قام به «حكيم» من إخبارنا بأن زوجته ووالدها عميلان وجاسوسان كان يهدف بأن نقع في مصيدة الكشف من خلال جهاز تحديد الموقع الذي كان مزروعاً في أعلى كاحل قدم زوجته «سارة»؛ فهو لم يفشِ سرهم، إلا لأنه كان يعلم أنهما سوف يفران إذا ما شعرا بالخطر، وهذا فعلاً ما كان سيحدث عندما صعدت «سارة» ووالدها إلى السيارة، وهذا ما قاله «نضير» لـ «علي» أثناء التحقيق معه. فقد قال أنه كان في طريقه إلى أحد الحواجز الصهيونية لكي يفرّ من خلالها مع ابنته، ولكن ما لم أكن أستطيع الجزم به هو: أكان «حكيم» يعلم بوجود جهاز لتحديد المواقع في جسد زوجته أم لا؟.

ما إن وصلنا إلى منزل القبو، حتى انشغل المهندس باستخراج المعلومات التي كانت على الأجهزة التي حصلنا عليها، وانشغلت أنا في الحديث مع «علي» الذي فقد زوجته وأطفاله بسبب ما قامت به «سارة» ووالدها «نضير» وذلك العميل «حكيم».

فكشفت له أن أولئك الثلاثة هم من تسببوا بفقداني لأخي «مدحت»، وهم أيضاً من كانوا وراء فقدانه لعائلته. وعندها تركت الخيار لـ«علي» ليقرر إذا ما أراد تصفية «حكيم» و«نضير» أو إذا أراد أن يكمل التحقيق معهما.

عندها قال لي «علي» أنه سيصفيهما ما إن تستيقظ الشمس، فقلت له: إذاً، هيا بنا الآن لنخرِج منهما أكبر كمّ من المعلومات التي نحن في حقيقة الأمر في أمس الحاجة إليها، لعلنا نستطيع حصاد عدد أكبر من العملاء.

دخل علي إلى الغرفة التي كان بها «نضير»، وبدأ التحقيق معه بعد أن قام بتشغيل الكاميرا ليكمل توثيق كل ما يقوله ذلك العميل. أما أنا، فقد قادتني قدماي إلى الدرج فنزلت عليه حتى وصلت إلى الباب، ولكني عدت مسرعاً لأحضر تلك الكاميرا التي كان قد استعملها المحامي «خليل» أثناء تحقيقه وزوجته مع «سارة»، فأخذتها من غرفة المهندس، وسمحت لقدمي أن تعودا بي إلى القبو مرةً أخرى.

شغّلت الكاميرا وسألت «حكيم»، وهو لا يزال على حالته التي تركته عليها قبل بضع ساعات، ولم أنسَ طبعا أن ساعتي كانت تشير إلى الساعة الثالثة فجراً أو أكثر من ذلك بقليل. سألته قائلاً: اذكر لي أسماء أعوانك من العملاء الذين تعاونت معهم أو قمت بتجنيدهم... اذكر أسماءهم ومكان السكن، وليكن ذلك بسرعة، فقد أضعت وقتاً طويلاً في محاولة اعتقال زوجتك وأبيها «نضير»، لكني لم أتمكن منهما، فقد فرّا قبل أن تصل يدي إليهما، ولذلك، هاتِ ما عندك على الفور.

بدأ «حكيم» كلامه وهو لا يزال مغطى الرأس، مما جعلني لا أتمكن من رؤية تعابير وجهه، وبخاصة بعد إخباري له أن زوجته ووالدها قد تمكّنا من الفرار. رغم ذلك، فقد عبّر صوته عمّا عجزت أنا عن رؤيته؛ كان صوته أقرب إلى الانتحاب. وعندها، بدأت الكلمات تخرج منسابةً وسريعةً، فقال أولاً: هناك عميلان هما: «زاهر» و«منذر»،

وذكر عنوانيهما بالتفصيل، وذكر أيضاً ما قاما به من رصد ومتابعة لبعض عناصر المقاومة، وكيف أدى هو دور الوسيط بينهما وبين الضابط الصهيوني «يوري»، فسألته عمّن تسبّب في قتله من المقاومين... فقال: خلال الأعوام الماضية تمكنّا مجتمعين من قتل نحو سبعة أشخاص فقط، وهناك بعض من أصيب لكنه لم يقتل... فقلت لـ «حكيم»: وماذا عن الأشخاص الثمانية الذين قصصت علي حكايتهم في بداية التحقيق؟.. فأجابني قائلاً: هؤلاء كنت أنا وحدي سبب مقتلهم.

لم أشأ أن أخوض مع الجاسوس «حكيم» في كيفية قيامه بالتسبب في مقتل هؤلاء الشهداء؛ نظراً لضيق الوقت، ولذلك وجّهت له السؤال التالي:

هناك أشخاص تعاونت معهم لكنك لم ترهم، ومن المؤكد أنك كنت تتواصل معهم من خلال النقط الميتة، أي: أنك كنت تضع لهم ما يعطيك إياه ضابطك المسؤول «يوري» في أماكن محددة لكي يلتقطوه هم من هناك... اذكر لي الجدول الزمني الذي كنت تقوم من خلال بوضع ما يعطيك إياه «يوري» واذكر أيضاً أماكن تلك النقاط الميتة بالتحديد.. واذكر لي أيضاً كيف كنت تخبّئ ما تريد وضعه في النقطة الميتة، وليكن بشكلٍ مفصل.

كاد «حكيم» يقول لي: وما أدراك أنت أنني كنت أقوم بمثل تلك الأمور؟ فأنا لم أخبرك بذلك، لكنه قال: يبدو أنك لست قاسياً وقوياً في ضغطك عليّ فقط، لكنك أيضاً تعرف الكثير مما يدور في دهاليز عالم العمالة.

فأجبته قائلاً: إن كنت أنت قد تسبّبت منذ اندلاع الانتفاضة الثانية حتى اليوم في مقتل ما يزيد عن خمسة عشر مقاوماً، بالإضافة إلى عائلة «علي» وأخي الأصغر «مدحت». فقد قمت أنا وبفضل الله عز وجل، وبفضل إخلاص وصدق رجال المقاومة، بقتل العشرات من كلاب الاحتلال ومن أعوان جهاز الشاباك.

وهنا يجب أن تعلم أن موضوع اعتقالك كان على خلفية مقتل أخي «مدحت»، وهذا ما لم تكن تعرفه أو تتخيله، أن يقوم أخو «مدحت» بالتحقيق معك، وبالمناسبة «علي» الذي قتلت زوجته وأطفاله هو من قام باعتقالك وإحضارك إلى هذا القبو. ولذلك، فمشكلتك معي ومع «علي» أكبر بكثير مما تتخيل، فنحن الاثنان أسوأ كابوس من الممكن أن تحلم به أو تتخيله يا سيد «حكيم».

ولذلك حدّد لي الأماكن التي توجد فيها النقاط الميتة، وحدّد لي الجدول ووضعك المالي وأدوات عمالتكم، ولا تضيّع وقتي.. بدأ «حكيم» بسرد الجدول الزمني، وذكر الأماكن التي كان يضع فيها ما يتلقاه من ضابط الشاباك «يوري» إلى عدد من العملاء الذين لم يكن يعرف هوياتهم أو أيّ تفاصيل عنهم. وأضاف، بعد أن انتهى من ذلك، بأنه قال لي عن جدول آخر كان يقوم هو باتباعه من أجل الحصول على ما يضعه له شخص مجهول في إحدى النقاط الميتة، وحدّد لي عدداً من تلك النقاط ورموزها التي كانت تصله عبر جهاز الهاتف النقال، فلقد قال بأن «يوري» يرسل له رسالةً نصيّةً، ويحدّد له في أحد مقاطعها رمزاً يدل على إحدى تلك النقاط الميتة.

ذكر لي الرموز وما تمثله من نقاط، وبعد ذلك أخبرني أنه لم يكن يرسل رسائل إلى من يقوم هو بوضع المال أو الأجهزة لهم، بل كان يقوم بإرسال رسالة إلى الضابط «يوري»؛ تفيد أنه وضع ما طلبه منه في المكان المحدد، وبعدها كان «يوري» يقوم بإرسال الرسائل إلى أولئك العملاء بشكل مباشر، مما يجعل «حكيم» لا يستطيع تحديد هويتهم أو أرقام هواتفهم. ولذلك فقد كان الجاسوس «حكيم» بمثابة النهر الذي ينبع من مصدر محدد، ويصب في عدة أماكن، وهذا شيء جيد جداً لنا، فهو حلقة وصل مفصلية ومهمة أيضاً.

بعد ذلك، طلبت من «حكيم» أن يعطيني كلمات السر التي كان قد وضعها على كافة أجهزته الإلكترونية؛ عندها ذكر «حكيم» الرقم ٤٣٥١، فقلت له: أليس هذا الرقم هو عدد صفحات كتاب مذكراتك الموجود على الملف السري، أو عدد قريب منه على ما أظن؟... وعندها تذكرت أن عدد صفحات مذكراته على الملف السري كان ٤٣٢٠. فقال: يبدو أنك نسيت أن تضيف هذا الشهر، فأنا أضيف دائماً رقم ٣١ على آخر رقم صفحة أصل إليه.

عندها قلت له: وهل تعلم ما هو الرقم السري الذي كانت زوجتك «سارة» تستعمله في أجهزتها الإلكترونية؟.. فقال: هل نسيت أنني جاسوس مدرّب؟، فكيف لا أتجسس على زوجتي وأعرف كلّ ما كانت تقوم به أيضاً؟.

لم أعلّق على ما قاله، ولكنه أكمل قائلاً: الرقم هو ١٥٣٤ إنه نفس رقمي معكوساً، فقد كانت «سارة» هي الأخرى تتجسس عليّ أيضاً؛ ولذلك كانت تستعمل رقمي السري الذي لم أكن أعلم كيف كانت تتمكن دائماً من معرفته، وبعد ذلك تقوم بعكسه واستعماله في أجهزتها الإلكترونية من حواسيب وهواتف وبطاقات يو سي بي.

ما إن انتهى «حكيم» من ذكر الأرقام، حتى قمت بكتابتها وأرسلتها إلى المهندس مع أحد المرافقين الذين استدعيتهم إلى القبو...

بعد ذلك، سألت «حكيم» عما قد تعلّمه وتلقاه في آخر دورة تدريبية له عند جهاز الشاباك الصهيوني، ومتى كان ذلك؟ فأجابني قائلاً:

لقد تلقيت آخر دورة تدريبية لي قبل نحو شهرين، وكان الفارق الزمني بين هذه الدورة وما سبقها يزيد عن عامين فأكثر، فأنا لم أتلقَ سوى ست دورات تدريبية خلال أعوام عملي الاثني عشر في جهاز الشاباك...

في هذه الدورة تم تدريبي على جهازين اثنين: أولهما جهاز يشبه الساعة إلى حد كبير، إلاّ أنه عند وصله ببطاقة يو سي بي صغيرة وخاصة، فإنه يتحوّل إلى شيء أشبه بالبوصلة، وعن طريق هذه الساعة البوصلة أستطيع إرسال إحداثيات نقاطٍ ميتةٍ جديدة أكون قد رصدتها ووجدت أنها مناسبة للاستعمال وكذلك استقبالها.. ولقد دللتك على الجهاز وعلى مكان وجوده في المخبأ السري في منزلي.

أما الجهاز الآخر، فهو موجود في أسفل صندوق سيارتي التي أخذتموها عندما اعتقلتموني، وهو ذو لونٍ فضي يشبه لون تنك البنزين المثبت بجواره. أما ماهية عمل هذا الجهاز، فتتلخص في أن الضابط المسؤول عني «يوري» كان يعطيني الخرائط داخل بطاقات الذاكرة، وكنت أضع هذه البطاقات في جهاز قراءة الخرائط وتحديد المواقع الذي في سيارتي، المثبت على لوحة المفاتيح بجوار مقود القيادة. وهكذا أقوم بقيادة سيارتي نحو الأماكن المحددة على تلك الخرائط... وما إن أصل هناك، أقوم بتشغيل الجهاز الآخر الذي قلت لك أنه موضوع أسفل سيارتي بجوار تنك البنزين، فيرسل إشارات بشكل مباشر إلى جهاز الشاباك، أما أنا فلا أستطيع مشاهدة ما يرسل إلا أن الضابط «يوري» أخبرني أنه جهاز مختص في تحديد ما إذا كان هناك أنفاق تحت الأرض التي قمت أنا بالتوجه إليها، ثم تمشيطها جيئةً وذهاباً.

وغالباً ما تكون تلك الأماكن أو الأراضي تقع بجوار مشافٍ عامة أو خاصة، أو بجوار منازل لبعض المسؤولين أو حتى مراكز رياضية أو مناطق مفتوحة... وكثيراً ما كان يطلب مني أن أتجوّل في سيارتي في المناطق المحاذية للجدار الذي يفصل قطاع غزة عن المنطقة الحدودية.

عندها، قلت له: عندما سيطرت المقاومة على قطاع غزة، وقامت بطرد أذناب الاحتلال، أي: عناصر جهازي المخابرات وجهاز الأمن الوقائي وعملائه، كيف أصبح عملكم أنتم عملاء الشاباك المباشرين؟.

فأجاب قائلاً: منذ أن سيطرت المقاومة على قطاع غزة، أدركت أنني سوف أقع في يد رجال المقاومة، وعندها أوقفت عملي بشكلٍ كامل، حتى أنني عندما شنّت قوات الجيش الإسرائيلي عملية الرصاص المصبوب على قطاع غزة، رفضت أن أستجيب لاتصالات الضابط المسؤول عني «يوري»، وأغلقت كل هواتفي وأجهزة الحواسيب التي كانت عندي.

فأنا كنت قد لاحظت أن المجتمع الغزّي أصبح ذا حسّ أمني كبير، صغاره وكباره، وكنت أخشى أن أعتقل وأعدم على يد طفل ما، قد شك بتصرّفاتي؛ فالمجتمع الغزي ما عاد مثل السابق، فلقد أصبح أكثر وعياً ودعماً للمقاومة.

وفي الفترة التي كانت المعارك دائرةً قبل ذلك بين المقاومة، وبين أجهزة أمن السلطة كنت نشطاً جداً، فرغم كرهي الشديد لتلك الأجهزة الأمنية التي أقسم أن كرهي لها كان هو الدافع الرئيس لطلبي من «كوهين» قبل اثني عشر عاماً أن يجعلني جاسوساً وعميلاً عنده وعند جهاز الشاباك، إلاّ أنّني كنت أخشى أن تسقط تلك الأجهزة الأمنية في معركتنا ضد المقاومة؛ فتلك الأجهزة كانت تُؤمّن لنا، نحن العملاء، الحماية والملاذ الآمن أيضاً، هل تعلم سيد «شهاب» أن الضابط «كوهين» ومن بعده الضابط «يوري» قالا لي، وطلبا مني أن أسلّم نفسي إلى تلك الأجهزة الأمنية عندما كانت قائمة قبل الحسم العسكري الذي قامت به المقاومة إذا ما شعرت بالخطر على حياتي ولم أتمكن من الفرار واجتياز الجدار الفاصل بين غزة والحدود.

وعندما سألتهما عن ذلك، قالا لي نفس الإجابة، وهي: أنت يا «حكيم» مستتر، أما قادة وعناصر تلك الأجهزة الأمنية فهم جواسيس تحمل رخصةً اسمها أوسلو، تجعل منهم عملاء لنا رغم أنفهم، فهم ملزمون بالتنسيق الأمني الكامل والمطلق معنا، أي أنهم مجبورون أن يعتقلوا، كل من له علاقة بالمقاومة ويحققوا معه، وبعد ذلك، إما أن يقوموا بتسليم من اعتقلوهم من مقاومين لنا، أو إبقائهم داخل سجونهم حسب طلبنا، أما المعلومات التي كانوا يحصلون عليها، فلقد كانت تنقل إلينا في نفس اللحظة التي كانوا هم قد حصلوا عليها.

أما عن سبب تسليمك لنفسك لتلك الأجهزة الأمنية، فإنه يعود إلى الاتفاقات التي وقعت بيننا وبينها، والتي تنص على ألاّ تمس السلطة وأجهزتها الأمنية أيّ جاسوس يعمل لدينا، وأن عليها حمايته من المقاومة إذا ما شعر بالخطر على حياته، وأن تقوم بنقله وتسليمه لنا.

وهذا هو دافعي الرئيسي وراء نشاطي الزائد في تلك الفترة التي كان القتال دائراً بين المقاومة والأجهزة الأمنية؛ كنت أشعر أنني أدافع عن نفسي ضدكم، رغم أنني كنت أعلم علم اليقين أنكم على حق كامل في سعيكم لتطهير القطاع من أذناب الاحتلال، كما تقول يا سيد «شهاب».

أما سبب عدم نشاطي في فترة حرب الرصاص المصبوب أو كما تسمونها أنتم حرب الفرقان، فيعود لأمرين؛ أولهما: خوفي الشديد من أن أقع في يد المقاومة، وهذا الأهم بالنسبة لي وهو أمني الشخصي.

وثانياً: هناك من يقوم بالأعمال التي كان مطلوباً مني القيام بها؛ فلقد كان بعض من تبقى من عناصر الأجهزة الأمنية السابقة يقومون بتلك المهمة بشكل مستميت،

فكانوا يقومون بنقل كل المعلومات التي يحصلون عليها مباشرة إلى قادتهم في رام الله، وأولئك القادة بدورهم ينقلون كل ما يصلهم إلى أجهزة الأمن الإسرائيلية... تلك الأجهزة التي كانت تحدد أماكن إلقاء القنابل الفتاكة، بناءً على معلومات عناصر الأجهزة الأمنية الذين ما زالوا في قطاع غزة حتى اليوم.

فتلك العناصر الأمنية يكنّون لكم كرهاً شديداً، وحقداً أسود... هو ذاك الذي يملأ قلوبهم، فأنا، كما تعلم، أنتمي إلى نفس التنظيم الذي ينتمون هم إليه، فمنذ أن جندني «بشار» بعد أن خرجت من السجن قبل اثني عشر عاماً، وأنا ناشط في ذلك التنظيم الذي كان غطاءً لي مما جعل حركتي سهلةً وميسرةً بشكل كبير.

ولا تنسَ أيضاً أنني أعمل الآن في وزارة الداخلية مديراً عاماً لأحد أقسام الوزارة، تلك الوزارة التي سيطرت عليها المقاومة، فأصبحت أنا عاطلاً عن العمل، ورغم ذلك بقيت أتلقى راتبي من رام الله طوال الأعوام الماضية وحتى اليوم رغم أنني عاطل عن العمل وأجلس في بيتي.

صحيح يا سيد «شهاب» أنت لم تسألني كيف دبّرت موت «بشار»؟

أم أنك لا تملك الوقت لذلك؟

لقد قتلته بمسدسي الشخصي دون أن يطلب مني أحد ذلك، ولقد فعلت فعلتي هذه لأنني أردت أن أحلّ محله في موقعه التنظيمي في القرية، فقد كان «بشار» أعلى رتبة تنظيمية في قريتي وأردت إزاحته عن طريقي، صحيح أن «كوهين» في تلك الفترة لم يطلب مني قتل بشار بشكلٍ مباشر، إلاّ أنه لمّح لي بأن بشاراً عقبة فإن زالت تلك العقبة فسوف يعلو شأني، وهكذا قمت بقتله بمجرد تلميح صغيرٍ ليس إلاّ.

أما «شوكت»، فقد قتلته أيضاً لأن «كوهين» لمّح لي أن «شوكت» بدأ يتحدث ويفاخر بأنّ أخًا لشهيدين ولأسير محكوم بثمانية عشر عاماً قد انضم إلى تنظيمي، ولذلك قمت بالتخلّص منه لأن انضمامي في تلك الفترة لتنظيم «شوكت» كان خطأً.. خطأ ليس مني، بل من «كوهين»؛ فهو الذي طلب مني ذلك، وهو أيضاً الذي تراجع عن ذلك الطلب ولمّح لي بأن أقضي عليه حتى لا يشكّل انضمامي لتنظيمه مشكلة عندي بعد أن قرّر «كوهين» أن تنظيم بشار هو الأنسب لي ولـ «كوهين». وهكذا كان القتل لدي متعةً وحاجةً في آنٍ واحد.

عندما استرسل «حكيم» بحديثه، ما عدت أذكر السؤال الذي كنت قد سألته إياه، لكن سؤالي الآن ما عاد مهماً قَطُّ، فالمهم هو ما يقوله «حكيم»، فهو يعلم علم اليقين أن ساعاته في هذه الدنيا قد أصبحت معدودة، ولذلك كان استرساله في سرد أمور لم أسأله عنها أشبه بمن يكتب وصيته عند اقتراب سكرات الموت منه.

كان حديث «حكيم» يدور في مجمله عن كيفية قيام أجهزة سلطة أوسلو بتوفير أرضية عمل آمنة أمام العملاء المرتبطين مع جهاز الشاباك الصهيوني.

ولذلك، أردتُ أن أوجّه الحديث إلى اتجاه آخر، فسألته إن كان له دورٌ في توجيه بعض بقايا تلك الأجهزة الأمنية التي في القطاع من أجل ضرب المقاومة والتجسّس عليها.. فأجاب قائلاً:

كانت تصل إليّ بعض التوجيهات من قيادة أجهزة الأمن في الضفة، من هناك حيث مقر مقاطعة أبطال أوسلو، وكانت تلك التوجيهات تختلف باختلاف الفترة الزمنية، وباختلاف الأحداث التي كانت جاريةً على الأرض وفي الميدان.

ففي فترة معارك الحسم العسكري الذي قادته المقاومة ضد أجهزة السلطة الأمنية، كان المطلوب مني، سواء من قبل جهاز الشاباك الصهيوني أو من قبل

أجهزة أمن السلطة، معرفة أماكن تخزين المقاومين للأسلحة وتحديد أماكن تواجدهم، كنت أرسل كل ما أحصل عليه من معلومات أجمعها بمساعدة «زاهر» و«منذر» إلى كلا الطرفين، أي: إلى مقاطعة أوسلو وإلى مركز الشاباك.

ولم يكن يعنيني كيفية تعامل كلا الطرفين مع تلك المعلومات، بل كان يعنيني أنني قد أصبحت، رغم أنني أبلغ من العمر ثلاثين عاماً، مديراً عاماً في أحد أقسام وزارة الداخلية بسلطة أوسلو، وأصبحت أيضاً عميلاً مهماً لدى الشاباك، ولقد أدركت ذلك بسبب كثرة الطلبات التي كانت تطلب مني.

أما في الفترة التي سبقت الحرب على قطاع غزة، فإنّ عملي بالكاد كان محصوراً في طلب واحد لا غير، هو تتبع أيّ معلومة قد توصل إلى ذلك الأسير الذي أسرته المقاومة في عملية الوهم المتبدّد؛ فمنذ تلك العملية التي أوجعتم بها جيش الاحتلال عندما انتزعتم الجندي «جلعاد شاليط» من دبابته، أوجع الضابط «كوهين»، الذي كان مسؤولاً عني في تلك الفترة، رأسي لكثرة إلحاحه عليّ من أجل الوصول إلى أي طرف خيط قد يؤدي إلى تخليص الجندي «جلعاد شاليط» من قبضة المقاومة، ولكني وطوال عدة أعوام من العمل التجسسي الجاد والمعقّد لم أتمكّن من معرفة أيّ معلومة.

فقد كانت أجهزة أمن المقاومة تبثّ في بعض الأحيان إشاعات وهمية من أجل التشويش على عمل العملاء في قطاع غزة من ناحية، ولكي توقع بعضهم في مصيدتها من ناحية أخرى؛ ونتيجة لذلك فقدت أنا وبشكل شخصي نحو أربعة عملاء خلال الأعوام الماضية، وكلهم قد سقطوا جرّاء تلك المصائد التي كانت تنصبها المقاومة بين الحين والآخر، ولولا أن أولئك العملاء الأربعة الذين سقطوا لم يكونوا يعلمون عني سوى اسمي ولقبي السري، لكنت قد أصبحت قتيلاً قبل زمن طويل.

فأولئك العملاء كانوا يعرفون شكلي فقط، وهذا لم يؤدِّ بكم إلى اعتقالي، فأنتم في تلك الفترة لم تكونوا تملكون أرشيفاً للصور أو ملفات لعملاء مفترضين... فأنتم كنتم لا تزالون في الفترة الأولى التي سيطرتم فيها على قطاع غزة، أما الآن وبعد أن تمكّنتم من الحصول على أرشيف جهاز المخابرات العامة وأرشيف جهاز الأمن الوقائي، وبعد أن سيطرتم على مقرات تلك الأجهزة، فقد أصبح الوضع مختلفاً، وازدادت قوة أرشيفكم بعد أن سيطرتم على أرشيف وزارة الداخلية وأقسام إصدار الجوازات والبطاقات الشخصية.

فمنذ ذلك الوقت، أصبحت أخشى أن أكشف شكلي ووجهي أمام أيّ عميل أتعامل معه؛ لأنني كنت أعرف أنكم قد انتقلتم من مرحلة الهواة إلى مرحلة الاحتراف... فلا تنسَ يا سيد «شهاب» أني كنت مديراً عاماً لأحد أقسام وزارة الداخلية، ولقد كنت مطلعاً على ما كان يحتويه أرشيف الوزارة، وقمت بنسخه وإرساله إلى جهاز الشاباك حسب طلب الضابط «كوهين».

أما أثناء الحرب التي حدثت على قطاع غزة، فلقد التزمت الجلوس في منزلي ولم أغادره قط، خوفاً من أن أقعَ في قبضة المقاومة وأجهزة الرصد التابعة لها.

وحتى عندما انتهت الحرب ولم يتمكن جيش الاحتلال من السيطرة على قطاع غزة وإعادة احتلاله بسبب استماتتكم في الدفاع عنها، بقيت دون ممارسة أيّ عمل تجسسي لحساب الشاباك أو لحساب أجهزة أمن أوسلو طوال عدة أشهر، حتى تأكدت أنني بعيدٌ عن أيّ شبهات أمنية.

أما «زاهر» و«منذر» فقد كانا نشطين جداً في تلك الفترة، فهما بالإضافة إلى كونهما عميلين في جهاز الشاباك، فهما يعملان في إدارة الإسعاف والطوارئ، مما جعل حركتها في ظل الانتشار الأمني الواسع للمقاومة إبان الحرب أمراً غير مشكوك به. أما الأهم، من ذلك أن كلاً من «زاهر» و«منذر» كانَ ينقل ما يحصل

عليه من معلومات إلى أجهزة أمن سلطة أوسلو في مقرها برام الله، وسبب ذلك يعود إلى أن قادة تلك الأجهزة كانوا قد اتصلوا بهما وهددوهما بقطع رواتبهما إن لم يتعاونا معهم، فأنت تعلم أن سلطة أوسلو تدفع الرواتب إلى الموظفين في قطاع غزة لكي لا يتوجهوا إلى أعمالهم من أجل إفشال سيطرتكم على القطاع.

رغم أن ما كان يقوله الجاسوس «حكيم» قد كان معلوماً ومعروفاً من قبل أصغر طفل في قطاع غزة، وفي فلسطين بأسرها، إلاّ أن «حكيم» كان يتحدث وكأن ما يقوله هو سرّ عظيم!.. في تلك الأثناء كانت الساعة اقتربت من الرابعة والنصف بعد منتصف الليل، وكان قد بقي على سماع صوت المؤذن لصلاة الفجر نحو أربعين دقيقةً فقط، فقرّرت أن أترك «حكيم» لعدة دقائق، وصعدت لمقابلة «علي»، فدخلت عليه الغرفة التي كان يحقق فيها مع الكهل «نضير»، فوجدت أنهما قاربا على نهاية التحقيق، وعندها طلبت من «علي» أن يخرج إليّ لكي أتحدث معه.

ما إن خرجنا، حتى رأيت أن المقاومين اللذين أرسلتهما لكي يتخلّصا من سيارة «سارة» قد عادا، فسرّني ذلك كثيراً، وسهّل عليّ ما كنت أخطط له.

وطلبت من أحد المقاومين أن يقود سيارته ويتوجّه إلى منزل أهلي وينتظر هناك بجوار المنزل حتى موعد أذان صلاة الفجر، وهو موعد خروج والدي للصلاة في المسجد المجاور، وطلبت من المقاوم أن يصلي الفجر مع والدي ويعود بصحبته إلى المنزل لكي يصطحب والدتي التي تكون هي الأخرى قد أدّت صلاة الفجر في المنزل، وأن يحضرهما بعد ذلك إلى هنا... إلى بيت القبو.

وما إن ركب المقاوم سيارته متوجهاً إلى حيث طلبت، حتى قال لي علي: وماذا عني أنا؟ فقلت له: لقد أخرجتك من الغرفة، وقطعت عليك جولة التحقيق لكي تفعل ما فعلته أنا، ألسنا نحن الاثنين أصحاب المقصلة التي ستحصد رأس كلّ من العميل «حكيم» الذي قتل أخي، ورأس العميل «نضير» الذي قتل زوجتك وأطفالك؟.

عندها صعد علي في إحدى السيارات وانطلق حيث لا أعلم... أما أنا، فعدت إلى الداخل حيث الغرفة التي كان يعمل فيها المهندس ومساعده و«إياد» عضلات أيضاً؛ فأخبرني المهندس أنه مسيطر على كل شيء، فأخبرته عن الجهاز المزروع في أسفل سيارة «حكيم» لكي يقوم بتفكيكه، إلاّ أن «إياد» اقترح أن يقوما بتفجير سيارة «حكيم»، ولقد شجعهم على ذلك المهندس عندما شكّ بكون تلك السيارة تحتوي على جهاز لتحديد المواقع، ولذلك قرّر أن يتخلص منها.

لم أشأ أن أقول للمهندس أنّ تخلصه من تلك السيارة قد يفقدنا إحدى الأجهزة التي قد تساعد في التعرف على تقنيات العدو الجديدة من أجل التصدي لها... لكنني أشّرت له على الساعة التي حصلنا عليها... وأتبع ذلك بأن قال: هذه الساعة تمثل طوق نجاة لصاحبها؛ فهي تستطيع أن تحدد موقع من يلبسها حتى لو كان في نفق عميق أو قبو مثل ذلك الذي يوجد فيه «حكيم»، فبمجرد أن يضغط من يلبس تلك الساعة على هذا الزر لحد أربع أو خمس ثوان، تقوم الساعة بإرسال رسالة استغاثة، وتتبع تلك الرسالة بأن تنقل موقع لابسها، وما يدور من حديث صوتي وصور فيديو إلى جهاز الشاباك بشكلٍ مباشر.

وأخبرني المهندس أنه كان قد حصل على واحدة من نفس نوع هذه الساعة قبل نحو خمسين يوماً، وأنه أمضى قرابة الأسبوعين في محاولة فكّ أسرار تلك الساعة. فبالرغم من كون منظر الساعة عادياً جداً، فهي تخفي تحت مظهرها البسيط تقنية معقدة، فهي تستطيع عن طريق وصلها ببطاقة يو سي بي، صغير الحجم، أن تقوم بتحديد عدد كبير من النقاط الميتة التي تستعمل للتواصل بين العملاء بعضهم بعضاً، وتخزينها.

عندها حمدت الله عز وجل أن ذلك العميل «حكيم» لم يكن يرتدي تلك الساعة عندما قمنا باعتقاله، وإلا لكان قد أرسل إلى جهاز الشاباك الصهيوني رسالة الاستغاثة، وأتبعها بأن يقول للعدو كل ما كان يجري بيننا وبينه من حديث.

كان حكيم قد أخبرني أنه في إحدى المرات التي كان فيها العميل «زاهر» قد توصل إلى معلومة تحدد موقعاً مقترحاً لمخبأ الجندي «جلعاد شاليط»، نقل تلك المعلومة إلى جهاز الشاباك الذي أوصى سلاح الجو الصهيوني بأن يُغير على ذلك الموقع ويقوم بقصفه. وهذا ما حدث، قصف الموقع الذي كان عبارة عن أحد المنازل الخالية، وخلّف القصف دماراً هائلاً بدل أن يقوم جهاز الشاباك بإعداد خطة لمداهمة الموقع وتخليص الجندي الصهيوني الأسير. ولذلك، كنت أخشى لو أن ذلك الجاسوس «حكيم» قد أرسل الرسالة لكنّا الآن قد قصفنا بصواريخ طائرات بني صهيون؛ فالصهاينة يفضّلون التخلص من عملائهم أو جنودهم حتىّ لا يضطروا للتفاوض من أجل إطلاق سراحهم، كما حدث مع المقاومة الفلسطينية التي تمكنت رغم أنف الصهاينة من إطلاق سراح ما يزيد عن ألف أسير فلسطيني مقابل ذلك الجندي «جلعاد شاليط».

عدت إلى القبو معتزماً أن أشغل النصف ساعة الباقية قبل وصول والديّ ووصول «عليّ» ومن معه لكي أوجّه سؤالاً واحداً وأخيراً إلى ذلك الجاسوس «حكيم».

طوق النجاة

طوق النجاة

ما إن نزلت إلى القبو، حتى قلت للجاسوس «حكيم»: هل تبحث عن طوقٍ للنجاة؟... طوق ينجيك من الموت المؤكد بإذن الله على يدي....؟

فقال «حكيم»: ومن منّا لا يبحث عن طوقٍ للنجاة، ولو كان هذا الطوق عبارة عن قشة في وسط الأمواج الهائجة...

عندها قلت له: اسمعني جيداً، فأنا فرصتك الوحيدة للنجاة، لكي تعود إلى أسيادك الصهاينة حياً ترزق، ولذلك ورغم كونك قاتل أخي، فسوف أعطيك بدل القشة التي لا تنجي صاحبها، قسماً بالله العظيم أقسمه لك بأن أوصلك بنفسي لأقرب نقطة حدودية لكي تجتاز الجدار وتفر، أما المقابل فهو ما يلي: أن تخبرني عن أسماء ما تبقى من عملاء قد تكون عملت معهم، وتجسست على المقاومة بمساعدتهم... وأن تخبرني عن أي أمر ما زلت تحتفظ به حتى الآن، ولم تخبرني عنه أو عن كيفية استعماله أو فك شفرته.

وهنا يجب أن تعلم بأنني سوف أفي بوعدي وأكون صادقاً معك رغم ألمي على فقدان أخي على يديك، ولذلك فليكن ما تقوله جديداً وواضحاً ومختصراً أيضاً، فأنت لا تملك من الوقت سوى دقائق معدودة ليس أكثر.

صمت «حكيم»، واختفى صوت أنفاسه، ثم تنهّد كمن يستجمع قوته، وقال: أتقسم بالله العظيم يا سيد «شهاب»؟

أجبته قائلاً: أولاً: أقسم بالله العلي العظيم أن أطلق سراحك إن أنت كشفت لي عمّا لا أعلمه. وثانياً: فلتكف عن مناداتي بكلمة سيد، فأنا لست سوى عبد فقير يسعى إلى مرضاة الله الواحد الأحد، ولذلك نادني «شهاب» فقط لا غير.

عندها قال الجاسوس «حكيم»: الساعة يوجد داخلها جهاز لم أكشف لك عنه، فأنا قلت لك فقط عن جهاز بوصلة تحديد المواقع، وبطاقة الذاكرة الخاصة به، ولم أذكر لك...

قاطعته قائلاً: لم تذكر لي جهاز الإنذار الذي يعمل على إرسال رسالة استغاثة إلى مركز الشاباك الصهيوني، ولم تذكر لي عن وجود جهاز آخر يقوم بتحديد موقعك أنت، في أي مكان من المفترض أن تكون تلبس الساعة فيه حتى ولو كنت في قبوٍ تحت الأرض، ولم تخبرني عن جهاز بث الصوت والصورة الذي كان من المفترض أن يعمل على نقل كل ما يجري بيني وبينك مباشرةً إلى الضابط المسؤول عنك «يوري»... «يوري» الذي سلّمك هذه الساعة، قد سلّم مثلها لجاسوس آخر قد وقع في قبضة المقاومة، ولقد أعدم... نعم أعدم، لأنه ظنّ أن الضابط المسؤول عنه سوف يأتي لكي ينقذه، لكنّ مهندسي المقاومة فكوا لغز الساعة قبل أن يأتي «يوري» وجيشه الجرار لكي ينقذوه... «حكيم» إن كنت تملك شيئاً لا أعرفه، فقله لـ«علي» أفِ لك بوعدي وبقسمي.

عاود الجاسوس «حكيم» صمته قليلاً ثم قال:

سيارتي يوجد داخلها جهاز يحدد موقعها، وهو مخبأ داخل جهاز الاستماع للأقراص سي دي، ولقد كنت أتوقع أن يتم تحديد مكان وجودي بناءً على مكان وجود السيارة.

عندها قلت لـ «حكيم»

لقد التقط أحد مهندسي المقاومة إشارة إرسال صادرة من سيارتك، لكنه لم يكن يملك الوقت ليحدد مكانها ويقوم بتفكيكها؛ ولذلك قمنا بالتخلص من سيارتك بعيداً جداً من هنا، عبر إحراقها وتحويلها لكومةٍ من الحديد المشتعل.

ذلك الحديد المشتعل الذي تذكره جيداً عندما قصفت سيارة أخي «مدحت» بعد أن قمت أنت بزراعة جهاز للتتبع في مرآتها، أو نسيت كيف يكون الحديد المشتعل يا سيد «حكيم»؟... لقد قلت لك: أريد شيئاً مفيداً، فأنت لا تملك إلا دقائق معدودة، ولذلك أعطني ما عندك ولا تقضِ على نفسك من خلال ذكرك لأمور أعلمها مسبقاً.

عندها قال «حكيم»: أعلم أنك قد قبضت على زوجتي ووالدها «نضير»، رغم أنك قلت لي أنك لم تتمكن من القبض عليهما، وأنهما قد فرا، ولذلك سأخبرك عن جهاز لا أظن أن مهندسك استطاع الوصول إليه.

قبل أن يكمل «حكيم» كلامه قلت له:

أتقصد الجهاز الذي بحجم حبة الأرز، والذي يحدد موقع وجود من يضعه؟ أتقصد ذلك الجهاز الذي كان مزروعاً في أسفل قدم زوجتك «سارة»، وتحديداً فوق كعب قدمها اليمنى؟.... إن كنت تقصد ذلك الجهاز، فلقد احترق وأصبح رماداً بعد أن أشعلت النار بصاحبته زوجتك «سارة» ابنة اليهودية، ويجب أن تعلم أيضاً أن سيارتها قد تم إحراقها هي الأخرى في مكان بعيد من هنا، لذلك حاول جهدك وعليك تذكر شيء جديد ومفيد.

عندها قال لي الجاسوس «حكيم»: لقد طلبت من الضابط «يوري» أن يزرع داخل جسدي جهازاً مماثلاً، فقال لي أنه لا يستطيع زرع مثل ذلك الجهاز سوى في أجساد العملاء الصهاينة، وأن «سارة» زوجتي هي صهيونية لكون أمها يهودية، أما أنا فإنّني قدمت للصهاينة لأكثر من اثني عشر عاماً بدأتها مع الضابط «كوهين» وأتممتها مع الضابط «يوري»، ورغم تفانيّ الكامل والمطلق، فلم أكن بنظرهم سوى عميل حقير لا قيمة له عندهم... هل أخبرتك زوجتي عن محل الملابس....؟

قاطعته بكلمة: نعم، ولقد قمنا بتمشيط المحل التجاري وحصلنا على كل ما كان داخله من أجهزة لحفظ الذاكرة وغيرها من أجهزة أخرى.. دعْك من زوجتك، ودعك من البكاء على ما فات. وقل لي بأنه كان هناك عملاء لم تقم بإخباري عنهم، فأنا أعتقد أنه لم يعد لديك سوى هذا المخرج والمنفذ الذي قد تستطيع النجاة من خلاله، فمعرفتي بأسماء عملاء جدد وأعوانهم يعوضني عن خسارتك عندما أقوام بإطلاق سراحك.

عندها، بدأ الجاسوس «حكيم» بالتحدث بأسلوب هستيري... وقال: «زاهر» ... «منذر» ... «سارة»... «نضير» هؤلاء أخبرتك عنهم.. صحيح... «حمدان» اعتقلته المقاومة ثم أعدم، وكذلك «أحمد»، وبعده «سمير» و«يزيد» هؤلاء الأربعة قلت لك عنهم.. صحيح، لقد قلت لك عن عمالتي وتجسسي على المقاومة.. وقلت لك أيضاً عن «شوكت» الذي قمت بقتله، ومن قبله «بشار» الذي أطلقت عليه الرصاص من مسدسي، ولقد أخبرتك عن «فادي» و«صبحي» اللذين قمت بالإبلاغ عنهما، وأدى ذلك إلى مقتلهما أيضاً.

ولقد أخبرتك عن كيفية قيامي بزرع عبوة ناسفة أسفل سيارة «أحمد» الذي قتل هو وأخوه «صابر».. «صابر» ذلك الذي كان مطارداً من قوات الاحتلال، ولم يستطع جهاز الشاباك الصهيوني الوصول إليه إلا عن طريق أخيه «أحمد» الذي كان يدرس معي في الجامعة، وبالمناسبة كانت هذه أول عملية لي أقوم من خلالها بالتسبب في مقتل أحد ما.

أما ذلك القائد، فقد وصلت إلى مكان وجوده عن طريق ابنه «تامر» الذي صادقته في الجامعة، وأدت صداقتنا إلى معرفتي بمكان وجود أبيه.. أبوه الذي تم قصف مكتبه السري أثناء زيارة ابنه «تامر» بعد أن قمت أنا بإيصاله في ذلك اليوم، وقبل أن تمضي بضع دقائق كان مكتب والده السري قد تحوّل إلى كومةٍ من الأنقاض بفعل القنبلة التي سقطت عليه، فأنا في تلك الفترة كنت قد حصلت على جهاز لَيزر خاص أقوم بتصويبه نحو هدف ما، وعندها تقوم طائرات الاحتلال بالاستدلال على المكان، ومن ثم قصفه.

بعد ذلك، توقف الجاسوس «حكيم» عن الكلام، وتوقّفت نوبة الهستيريا التي كان قد دخل فيها، ثم ما لبث أن بدأ مجدداً بالحديث، ولكن هذه المرة بصوتٍ خافتٍ حزين... فقال: لعلي إن أخبرتك عن قصة زواجي بـ«سارة»، تجد بها ضالتك من أسرار لم تقم «سارة» بكشفها لكم... ولا تنسَ أن «سارة» قد أصبحت رماداً، كما قلت يا شهاب...

«سارة» كانت متزوجة وتعيش مع والدها وزوجها الذي كان يعمل هو الآخر جاسوساً في الضفة الغربية، لكنه اعتقل هناك على يد المقاومة كما حدث معي هنا، وتمت تصفيته وتعليق جثته في أحد الميادين هناك، كان زوج «سارة» الأول ضالعاً في قتل عدد من الثوار والمقاومين، وكانت عملية مفاجئة وسريعة جداً، بحيث إنّ ما علمته من «سارة» أنه قد تم التحقيق مع زوجها بشكل ميداني غير محترف، وأنه ما إن أعترف بتسببه بمقتل عدد من المطلوبين لقوات الاحتلال خلال فترة بداية الانتفاضة الثانية، حتى قام أحد المقاومين الذين كانوا يحققون معه بإطلاق النار عليه وقتله، ثم قام ذلك المقاوم مع عدد من المسلحين بتعليق جثة زوجها في أحد الميادين، كلّ ذلك تم في أقل من ساعتين لا أكثر، ولذلك فلم تُكتشف بسبب سرعة مقتله وقلة الخبرة في التحقيق معه حقيقة كون «سارة» هي من كانت تدير عمليات التجسس بمساعدة والدها، وأنّ زوجها لم يكن سوى أداة، مثله مثل الكثير من العملاء الذين يعملون على الأرض معرضين أنفسهم للخطر.

لذلك بقيت «سارة» مع والدها في مأمن من اعتقال المقاومة لها، وعاودت ممارسة نشاطها تدريجياً، واستمرت على هذه الحال حتى تقلص عملها مع مرور الأعوام بسبب قيام أجهزة أمن أوسلو ببسط سيطرتها على أنحاء الضفة الغربية بمساعدة الجنرال «دايتن» من جهة، ومساعدة جهاز الشاباك من جهة أخرى؛ بحيث استطاعت الأجهزة الأمنية، من أمن وقائي ومخابرات أن تعوضا أيّ نقص في المعلومات يعاني منه جهاز الشاباك،

فتلك الأجهزة الأمنية كانت وما زالت تمد جهاز الشاباك بأكثر مما يحتاجه من معلومات، فقادتها يتنافسون فيما بينهم على تقديم المعلومات بشكل أسرع وأكثر تفصيلاً من أجل إرضاء أسيادهم في جهاز الشاباك الصهيوني.

لذلك لم يعد عمل «سارة» ووالدها في مناطق الضفة يشكّل أهمية لدى الشاباك، وهذا هو السبب وراء نقلها مع والدها إلى قطاع غزة، وكنت أنا في استقبالها في القطاع بعد أن دخلته بهويةٍ مزورةٍ تفيد أنها قد عادت مع والدها «نضير» من ليبيا بسبب الثورة التي كانت هناك، وأطاحت بالعقيد «معمّر القذافي»، وعاد الكهل «نضير» وابنته «سارة» على أساس أنهما لاجئان فلسطينيان أجبرا على ترك ليبيا بعد مقتل زوجة «نضير» أمّ «سارة» كما قالا، وما إن استقرا في قطاع غزة، حتى طلب منّي الضابط المسؤول «يوري» أن أتزوج من «سارة»، ولقد فعلت، وكان هذا الزواج زواجاً صورياً لا أكثر من أجل تأمين غطاء لتحركات «نضير» وابنته، فلكوني مديراً عاماً في إحدى دوائر وزارة الداخلية في سلطة أوسلو، سهّل ذلك على «سارة» ووالدها التحرّك في أوساط من يعارض سيطرة المقاومة على قطاع غزة، وبخاصة أن ذلك الوسط، من بقايا أجهزة أمن أوسلو، يعدّ تربة خصبة للسقوط في مصيدة العمالة لجهاز الشاباك الصهيوني، وذلك لقناعتهم أن مصلحتهم في العمل ضد المقاومة تتطابق مع مصلحة الشاباك الصهيوني أيضاً.

إلا أن «سارة» كان مرتعاً لها لتمارس الرذيلة أيضاً، رغم كونها زوجتي، ولكنها لم تبالِ، بل تمادت كثيراً جداً، مما جعلني أقرر الرحيل من منطقة سكني القديمة لأحضر واستقر هنا في هذه المدينة الصغيرة نسبياً، فكانت تصرفات «سارة» قد جعلت مني مصدر سخرية وتهكُّم بين أبناء عائلتي ووسط من كانوا يعرفوني، ولذلك كان تلوّث سمعتي هو السبب الرئيسي وراء نقل مكان إقامتي،

بالإضافة إلى بعض الأسباب الأمنية أيضاً، فسارة كانت تكثر من شرب الخمر، وكانت تهذي بكلمات وجُمَل أثناء نوبات سكرها، مما كان يخيفني كثيراً، وخاصة أنها كانت تعود في بعض الأحيان إلى البيت بعد منتصف الليل بكثير وهي سكرانة وشبه فاقدة لوعيها، مما كان يجعلني أعيش حالة خوف ورعب، خشية أن تكون قد تفوّهت بشيء ما يكشف سر عمالتنا مع جهاز الشاباك.

ولقد أبلغت الضابط «يوري» عن تلك التصرفات، فدعم موقفي وجعلها تترك تلك المدينة. أما عندما وصلنا إلى مدينتك هذه التي ألقيت بها القبض علينا، فلقد انحصر عمل «سارة» في اصطياد بعض النساء والإيقاع بهنّ من خلال عملها في محلها الذي كانت تملكه وتديره، فسارة كانت حملاً على كاهلي لم أستطع التخلص منه.

عندما كان الجاسوس «حكيم» يتحدث، كنت أنا أقلّب الأوراق التي حصلت عليها من المحامي «خليل»، والتي تخص موضوع التحقيق مع «سارة»، فلم أجد فيما قاله «حكيم» أيّ جديد، بل وجدت أن «خليلاً» وزوجته «مرام» قد استطاعا خلال فترة قصيرة جداً الحصول على معظم النشاطات التجسسية التي كانت «سارة» تمارسها، ولقد زودتهم «سارة» بالعديد من أسماء عملائها وعناوينهم ومعلومات شبه مفصلة عنهم وعن كيفية تواصلها معهم.

وأعتقد أن سبب نجاح «خليل» و«مرام» في ذلك، لا يعود هذه المرة إلى «خليل» رغم أنه ذو خبرة ممتازة في التحقيق مع العملاء والجواسيس، بل يعود إلى «مرام»... وذلك لكون «مرام» ابنة الشهيد المقاوم «كريم»، الذي استشهد بعد أن زرع أحد العملاء عبوةً ناسفةً أمام منزله، مما أدى إلى مقتله، وإصابة «مرام» بجراح بسيطة جداً من الناحية الجسدية، إلاّ أن تلك العبوة التي أدت لاستشهاد والدها قد تركت لديها ألماً نفسياً كان يجعل منها فتاةً دائمة الحزن، ودائمة الحديث عن رغبتها في القصاص من ذلك العميل الذي أفقدها والدها.

ولذلك، كانت «مرام» أشد قسوةً وعنفاً على «سارة» من زوجها «خليل»... وذلك كان جلياً، إذ إنني شاهدت في تلك الأوراق أن «مرام» هي التي كانت تسأل معظم الأسئلة تقريباً. أما المحامي «خليل» فكانت أسئلته محدودة، إلا أنها كانت أساسية وفي الصميم، ولقد كان جلياً أن «مرام» و«خليلاً» قد أتمّا عملهما على أكمل وجهٍ ممكن في ظل تلك الظروف.

أما الجاسوس «حكيم» فلم يأت بأي شيء جديد، ويبدو أنه، بعد مضي نحو ثماني عشرة ساعة بالتمام والكمال على اعتقاله وخضوعه للتحقيق، قد أفرغ كل ما في جعبته بشكل كامل.

ولذلك، بدأت ألملم أوراقي بعد أن أطفأت كاميرا التصوير، متجاهلاً ما كان يهذي به «حكيم» الذي لم يتوقف عن الكلام إلاّ عندما سمع صوت طرقٍ على باب القبو.

ما إن توقّف عن الكلام، حتى كنت أنا قد قمت بفتح باب القبو، فإذا بأحد الحراس يخبرني بأن موعد صلاة الفجر قد حان، وأن علي الصعود لأداء الصلاة مع الإخوة المقاومين في الأعلى... فصعدت على الفور بعد أن أغلقت القبو على الجاسوس «حكيم»، وأغلقت أيضاً ملف التحقيق معه نهائيا وبلا رجعة بإذن الله عز وجل... بل إنني أغلقته مصمماً على أن تكون المقصلة هي جزاءه على ما فعل ضد أبناء شعبه، من قتل وسفك لدماء الأبرياء، وعمالته للصهاينة الأعداء؛ صحيح أنني كنت أنوي إطلاق سراحه لو أنه قام بكشف شيء لم أكن أعلمه، إلاّ أنه كان مثل معظم العملاء والجواسيس الذين سبق لي أن حقّقت معهم أو حققت المقاومة معهم، فأولئك الجواسيس يبوحون بمعظم ما لديهم من معلومات خلال أقل من ساعتين على خضوعهم للتحقيق. ولولا انشغالي في إحضار زوجته ووالدها، لكنت انتهيت من التحقيق مع «حكيم» منذ عدة ساعات، ولكن لا بأس ما دمت قد انتهيت منه قبل أن تطلع الشمس.

في الأعلى، وجدت المهندس ومساعده وعدداً من الإخوة المقاومين ينتظرونني لأداء صلاة الفجر، وبدل أن أقف في الصف خلف الإم ام «أحمد»، اتجهت نحوه، وقلت له: يا إمامنا، أرجو منك أن تعجّل وتقصّر في قراءتك للقرآن ولا تطيل علينا، كما تفعل دائماً. صحيح أنك، يا شيخنا، تعلم جيداً أننا هذه الليلة كما نتمنى لو أنها تطول وتطول، حتى يتأخر طلوع الفجر كي ننجز عملنا الذي كان يحتاج إلى وقت طويل، ولكن ما لا تعلمه، يا شيخنا، هو أنك بمجرد أن تنهي صلاتك بنا سيحين موعد القصاص، وموعد آخر سيجعل يوم فجرك هنا أطول من ليلتنا السابقة، فمع طلوع الفجر، علينا الانطلاق لاصطياد الطرائد قبل أن تفر من أوكارها.

صلى بنا الشيخ «أحمد» وقرأ قصار السور، ودعا الله لنا في ختام صلاته بأن تنجح مقاومتنا، ويجعلنا رماحاً في صدور أعداء الدين، من خونة وجواسيس وصهاينة محتلين.

بعد ذلك، توجّهت إلى الغرفة التي كان «نضير» قد خضع للتحقيق داخلها، فوجدته يغط في نومه، فصببت على رأسه إبريقاً من الماء، فأفاق وكأنه قد صب على رأسه زيت مغليّ، وسرعان ما أدرك أن ما قد صبّ عليه هو الماء.

أما الزيت المغليّ، فلقد كان سلاحاً وهمياً يخيف به «عليّ» «نضير» أثناء قيامه بالتحقيق معه. فعلى الرغم من أن «عليّاً» كان يصور جلسة التحقيق، إلا أنه كان يكتب رؤوس أقلام وملاحظات في عدة أوراق، تركها على طاولته قبل أن أستدعيه ويخرج ليغادر منطلقاً بسيارته إلى حيث لا أعلم.

تلك الملاحظات كانت ممتازة جداً، فقد سهلت عليّ قول ما أريده للجاسوس «نضير»، فوجدت أن «عليّاً» يضع كلمة «مكررة» على المعلومة التي أعاد تكرارها «نضير». ومن هنا، أدركت أن «نضير» أصبح يعود على ذكر ما قاله سابقاً، مما يدل على أنه لم يعد يملك أيّ شيء جديد.

ولذلك قلت لـ«نضير» ما كنت قد قلته مسبقاً لـ «حكيم» بأنني سوف أطلق سراحه وأوصله إلى برّ الأمان عند أسياده الصهاينة إذا ما أفادني بشيء جديد.

بدأ «نضير» على الفور بالحديث مكرراً ما كان قد سبق واعترف به؛ فكل جملة كان ينطقها، وكل اسم كان يذكره كنت أجده أمامي مسجلاً بخط يد «علي»...

انقضت الدقائق، وطرق الباب عليّ من جديد، فإذا بالشيخ «أحمد» هو من يطرق الباب، فخرجت للحديث معه، فأخبرني بأن «إياد» عضلات قد عاد وبصحبته أبي وأمي.

عندها طلبت من الشيخ «أحمد» أن يسبقني إلى القبو، وتوجهت أنا إلى الخارج، فوجدت والدي ووالدتي يجلسان على المقعد الخلفي للسيارة التي أحضَرَتهما، فصعدت إلى السيارة وكان قد مضى علي فترة طويلة لم أرَ خلالها والدي. أي: منذ أن ودعنا أخي الأصغر «مدحت» شهيداً؛ ففي ذلك اليوم أقسمت على ألاّ أعود إلى منزلي للراحة قبل أن يرتاح أخي في قبره، بعد أن أقتص له من ذلك الذي تسبب في مقتله.

ما إن جلست، حتى قال لي والدي: هل نحن هنا من أجل توديعك؟ هل أنت، يا ولدي، في طريقك لتنفيذ عملية استشهادية...؟ قل لي، يا ولدي، فيشهد الله علي أنني سأودعك مسروراً، داعياً لك بالنصر والعزة، وإن أردت، يا ولدي، سآتي معك لأساعدك وأشدّ على يدك، حتى تُثخن في قتل أعداء دينك، الصهاينة المحتلين.

ظللت صامتاً ولم أنطق بكلمة، فقالت والدتي: لا أظنه قد أحضرنا هنا لكي نودعه، بل أحضرنا هنا لأمر آخر، فلو كان ذاهباً في عملية استشهادية، كما تقول يا أبا «شهاب» لكنت قد علمت، فأنا أمّ، وقلب الأم دليلها... ابنك «شهاب» قد أحضرنا إلى هنا لأمر آخر.. وأكملت أمي قائلةً:

هل أحضرتنا هنا لكي تعطيني الطفلتين اللتين أحضرهما إليّ أحد مرافقيك عند منتصف الليلة الماضية، أي: قبل نحو ست ساعات؟ أم أنّ هناك أمراً آخر وأظنه مهماً؟ فليس من عادتك أن تجعلنا قريبين من عالمك، عالم المقاومة والسرية والغموض.

أبي الغالي... أمي الحبيبة، لقد أحضرتكما إلى عالمي السرّي المقاوم من أجل أن أسألكما إن كنتما ما زلتما تذكران ما قلتماه يوم استشهاد ابنكما «مدحت»، أم تريدان مني أن أذكركما بما قلتماه وأقسمتما عليه؟... ألم تقل، يا والدي الغالي يا أبا الشهيد «مدحت»، بأنك لو وفقك الله، وأمسكت بالعميل الذي تسبّب في استشهاد ابنك، فإنك سوف تفرغ بصدره ألف رصاصة ورصاصة...

وأنت، يا أماه... يا أم الشهيد «مدحت»، ألم تقولي بأنك لو استطعت الوصول إلى الجاسوس الذي غدر ابنك وأدى إلى مقتله واستشهاده، فسوف تغرسين في صدره بدل السكين مئة سكين وسكين.

لقد أحضرتكما إلى هنا، وأحضرت لك أيضاً يا أبي بدل الرصاصة ألفاً، ولك يا أمي بدل السكين مئة، لكي تقتصا من غريمكما، من ذلك الجاسوس العميل الذي تسبب في فقدكما لابنكما، كما تسبب أيضاً باستشهاد عدد كبير من خيرة أبناء فلسطين.

فتحت أمي باب السيارة وتبعها والدي، فلحقت بهما، وقدتهما نحو السلم، نزولاً إلى القبو... هناك في القبو كان الشيخ «أحمد» قد وضع الذخيرة داخل مخزن الرشاش، وأعده جيداً للاستعمال، ووضع أيضاً سكيناً ذات نصلٍ حاد... وانتظر قدومي.

ما إن رأى والدي ووالدتي حتى أشرت له بيدي أن ينزع الغطاء من على رأس الجاسوس «حكيم»، فنزعه عنه، وعاد ليقف بجواري.

أمي حملت السكين بيدها، أما أبي فقد حمل الرشاش الذي كان يعلم جيداً كيفية استعماله، فوالدي مجاهد ومرابط على ثغور غزة رغم كبر سنّه.

أما أنا، فسألت «حكيماً» سؤالاً كان كل من والدي ووالدتي يريدان سماع إجابة عنه، فقلت لحكيم:

هل أنت يا «حكيم» من تسبّب في استشهاد «مدحت» أخي، وابن هذين الزوجين؟

صمت «حكيم» ولم ينطق بحرفٍ واحد، فهو يشاهد بعينيه مقصلة عمالته قد نصبت له.. عندها صاح كلاً من والديّ بصوتٍ واحد: هل أنت من قتل ابننا وفلذة كبدنا؟

هزّ «حكيم» رأسه وقال: نعم أنا.. نعم أنا.. وأغمض عينيه، وطأطأ رأسه مستعداً للرصاص ولطعنات السكين... إلاّ أن ذلك لم يحدث.

فبدل أن تطعنه والدتي في صدره كما كانت قد أقسمت، قامت بإلقاء السكين أرضاً، وبصقت على ذلك الجاسوس العميل، وصعدت الدرجات مسرعةً نحو الخارج، أما والدي فلقد أعطاني الرشاش وبصق هو الآخر على ذلك العميل، وخرج صاعداً إلى الخارج.

قبل أن يصل والدي إلى السيارة، كانت رصاصات رشاشي قد وصلت إلى صدر ذلك الجاسوس، فأرديته قتيلاً مضرجاً بدمائه الفاسدة القذرة العفنة.

ركب والداي السيارة، وانطلق بهما «إياد» عضلات وأحد المرافقين لكي يوصلاهما إلى البيت، وما إن غابت السيارة مبتعدةً عن منزل القبو، حتى كانت سيارة أخرى تقترب فتوقفت بجواري ونزل منها «علي» فحدّثته بما حدث، فقال لي أنه كان موجوداً في منزل عمه والد زوجته، وأنه حاول إقناع عمه وزوجته بالقدوم إلى هنا من أجل القصاص من «نضير»، إلاّ أنهما ورغم إلحاحه عليهما، ورغم أنهما كانا قد وضعا برقبته أمانةً بأن يسلمهما قاتل ابنتهما لكي يقتصّا منه بنفسهما، إلا أنهما قالا له بعد أن علما أن الجاسوس «نضير» الذي تسبب في استشهاد ابنتهما وأحفادهما أصبح في قبضة «علي»، أن يقوم هو بالقصاص منه، وإلاّ يجعل شمس الصباح تطلع عليه هذا اليوم.

والآن، والشمس قد قاربت على أن تشرق بعد ليلةٍ طويلة، توجّه «علي» مباشرة نحو الغرفة التي كان بها «نضير»، فجرّه منها نزولاً إلى القبو، وألقى به إلى جوار جثة «حكيم»، ثم أفرغ به رصاص مسدسه الشخصي... فكانت أربع عشرة رصاصة هي من وضعت حداً لذلك الكهل «نضير»، وأنهت فترة عمالته لجهاز الشاباك الصهيوني، وأنزلت عليه حدّ المقصلة، وحددت الجزاء الذي ينتظر كل من خان وطنه وشعبه.

بعد ذلك، صعد «علي» إلى أعلى، وقال لي وللمهندس وللشيخ «أحمد» ولكل من كانوا حولنا: فلندرك الشمس قبل أن يدركها الجواسيس والعملاء ويفروا بعيداً عن أسيادهم.

يد الله مع الجماعة

يد الله مع الجماعة

لم يكن الخلاص من الجواسيس الثلاثة «حكيم» وزوجته «سارة» ووالدها «نضير» سوى الخطوة الأولى التي انطلقنا منها لكي نصل إلى باقي عناصر شبكة التجسس تلك، من أجل أن نعمل على تفكيكها والقضاء على العملاء والجواسيس الذين كانوا على صلة بها.

إن علاقتي مع «علي» كانت أقدم بكثير من خطوات البداية تلك، فقد كنت أنا و«علي» من أطفال الحجارة في بداية الانتفاضة الأولى، وما لبث إلقاؤنا للحجارة أن توقف، ليتحوّل إلى إلقاء الزجاجات الحارقة باتجاه جنود الاحتلال الصهيوني، وأتبعنا ذلك عندما كبرنا قليلاً بالعمل المسلح من خلال مسدس واحد قمنا بصناعته بشكل بدائي جداً، فذلك المسدس لم يكن من الممكن له إطلاق سوى رصاصة واحدة فقط لا غير في كل مرة كنا نقوم باستعماله، وبعد ذلك كان علينا التخلص من الرصاصة الفارغة عبر خلعها بكماشة من ماسورة ذلك المسدس البدائي.

ففي تلك الفترة، كان الحصول على سلاحٍ حقيقي في قطاع غزة أمراً في غاية الصعوبة. لم أكتفِ أنا و«علي» بتلك الرصاصة الواحدة التي كانت غالباً لا تصيب الهدف الذي نطلقها عليه، بل تجر علينا مطاردةً حاميةً من قبل قوات الاحتلال وعملائها المنتشرين في قطاع غزة في تلك الفترة، ولذلك فقد وجدنا أنه من الأجدر بنا أن نقوم بالعمل على تنظيف قطاع غزة، أو حتى تنظيف مدينتنا أو حيًّنا من الأشخاص المتعاونين مع جهاز الشاباك الصهيوني.

إلاّ أن ذلك لم يكن سهلاً على الإطلاق، فقد كنا شباباً صغاراً، قليلي الخبرة،

شديدي الحماس، عديمي الصبر والحكمة، وسرعان ما اكتسبنا الخبرة وأصبحنا صبورين في معالجتنا لقضايا أولئك الجواسيس الذين كنا نلقي القبض عليهم، إلاّ أننا وللأسف لم نكن حازمين في التعامل معهم، ويعود ذلك لأن معظم الجواسيس والعملاء الذين كانوا يتعاونون مع جهاز الشاباك لم تكن أياديهم ملطخةً بدماء أطفال الحجارة ورجال المقاومة، بل كانت غالبية أعمالهم تنحصر في عملية نقل الأخبار، ونقل أسماء المقاومين أو أماكن تواجدهم إلى الشاباك الذي كان بدوره يقوم بإرسال الوحدات الخاصة، أي: وحدات المستعربين من أجل اعتقال الأطفال، مُلقي الحجارة، أو المقاومين ذوي النشاط الفاعل على الأرض.

كنا في تلك الفترة، أي: في الانتفاضة الأولى، عندما نقوم بإلقاء القبض على أحد المشتبه بهم بالعمالة، كنا نقوم بالتحقيق معه، وعندما يقوم هو بالاعتراف على نفسه وعلى من ساعدوه في أداء مهامه التجسسية، كنا نقوم بإطلاق سراحه إن لم تكن يداه ملطختين بدماء أبناء فلسطين، وكنا أيضاً نقوم بتوزيع مناشير وبيانات مطبوعة توضح تفاصيل عمالة ذلك الجاسوس، مما كان يدفع بأولئك الجواسيس إلى مغادرة بيوتهم، والفرار للعيش في كنف إحدى المستوطنات التي كانت توفر الحماية لهم؛ تلك المستوطنة، التي كانت مقامة في قطاع غزة، كانت توفر الملاذ الآمن للجواسيس الفارين، وكانت مركزاً لتخريج مزيد من العملاء. ففي تلك المستوطنة كان جهاز الشاباك الصهيوني يدرّب ويعدّ ويدير جزءاً كبيراً من عملياته ضد المقاومة في قطاع غزة.

وكم كنت أفضّل لو أن الزمن يعود بي إلى تلك الفترة الزمنية، لكي أقوم ببعض التعديلات عليها.

ما إن انتهت الانتفاضة الأولى، حتى كانت تلك المستوطنة قد امتلأت عن بكرة أبيها بالعملاء والجواسيس الذين بدأوا بالعودة بشكل تدريجي لقراهم ومدنهم مع بداية عودة أجهزة أمن أوسلو، وكان جهاز الشاباك ينسّق مع تلك الأجهزة الأمنية لكي تحمي هؤلاء العملاء، وتؤمن عودتهم إلى منازلهم تحت ذريعة أنهم قد كشفوا عن عمالتهم، وأنهم ما عادوا يشكلون خطراً على الفلسطينيين، تحت تلك الذريعة وتحت اتفاقات أوسلو عاد عدد ليس بالقليل من أولئك الجواسيس ليمارسوا حياتهم بشكل طبيعي، وكأنّ شيئاً لم يكن، أما الأهم فلقد كان قيام قادة أجهزة الأمن الوقائي والمخابرات العامة بابتزاز هؤلاء العملاء من أجل الحصول على المال منهم، وتطوّرت العلاقة بين قادة أجهزة أمن أوسلو وعملاء الشاباك السابقين افتراضياً، فهم ما زالوا عملاء بالحقيقة والواقع لتصبح علاقة مصالح مشتركة، وليبدأ كلا الطرفين بإدارة عدة أنواع من التجارة المشتركة.

وافتتح عدد من قادة أجهزة أمن أوسلو مع العملاء عدداً من الملاهي الليلية وبيوت الدعارة والعهر أيضاً.. أما البعض الآخر، فقد بدأ يقيم مزارع لزراعة نبتة الحشيش المخدرة من أجل الاتّجار بها، وترويجها بين أبناء قطاع غزة، وصولاً إلى أبناء الضفة الغربية والقدس المحتلة.

ووسّعوا تلك التجارة، فأصبحوا يدخلون حبوب الهلوسة والمخدرات من خلال سياراتهم الخاصة التي كانت تحمل أرقاماً خاصة للشخصيات المهمة من بعض الدول المجاورة لفلسطين المحتلة؛ لكي يسوّقوها ويتاجروا بها، بمساعدة عملاء الشاباك.

وقد أدى ذلك التعاون والتكامل بين الطرفين إلى ازدهار كبير في عدد العملاء الذين باتوا لا يخافون من المقاومة، بسبب حماية أجهزة أمن أوسلو لهم، مما جعل الفترة الممتدة بين نهاية الانتفاضة الأولى وبداية الانتفاضة الثانية من أفضل الفترات في تاريخ حياة جواسيس الشاباك الصهيوني في المناطق التي كانت تحت سيطرة أجهزة أمن أوسلو.

أما نحن المقاومين، فقد كنّا بين مطرقة الاحتلال وسندان أجهزة الأمن، تلك التي كانت تلاحقنا وتطاردنا تماما، مثلما كان الاحتلال يفعل قبل قدومها إلى المناطق الفلسطينية... فقد تمّ اعتقالي عدة مرات لدى كل من جهازي الأمن الوقائي والمخابرات بحجّة مقاومتي للاحتلال تارةً، وبحجّة ملاحقتي للعملاء والجواسيس تارةً أخرى.

هناك في زنازين تلك الأجهزة، تعرّضت كما تعرّض «علي» أيضاً إلى أشد أصناف التعذيب على يد عناصر تلك الأجهزة وقادتها، الذين كانوا ينظرون إلينا وكأننا العقبة التي تقف في طريق تحقيقهم لأهدافهم المتمثلة في جمع المال بكل الوسائل المشروعة، وفي طريق إرضائهم لأسيادهم في أجهزة أمن الاحتلال.

ما إن انطلقت الانتفاضة الثانية، حتى انطلقت لأقاوم الاحتلال وألاحق أعوانه من جديد، وخاصة أنه تم إطلاق سراحي أنا و«علي» من زنازين أجهزة أمن أوسلو بعد مهاجمة جموع المتظاهرين الفلسطينيين المقر الذي كنت مسجوناً داخله.

وفي غضون أعوام قليلة جداً، تمكنا بحمد الله وتوفيقه من أن نقلب المعادلة رأساً على عقب... فالمقاومة الفلسطينية في تلك الفترة قد تمكّنت من الحصول على بعض الأسلحة، بل إنّها بدأت وبشكل سري للغاية تصنيع عدة أنواع من الأسلحة التي مكّنت المقاومة من تغيير قواعد اللعبة.

أما أنا، فلم أكفّ عن المقاومة المسلحة من خلال مجموعة شكّلتها مع صديقي «علي». ولم نكف نحن الاثنان عن متابعة الجواسيس والعملاء ورصدهم، مما حوّل حياة هؤلاء الخائنين إلى أهداف مشروعة لكل مقاوم على أرض فلسطين، بل إن هناك مجموعات من المقاومة قد منّ الله عز وجل عليها بأن تمطر المستوطنة التي كانت تضم داخلها وكر جواسيس جهاز الشاباك بالمئات من الصواريخ والقذائف التي حوّلت حياة العملاء هناك إلى كابوس لا يمكن احتماله والتعايش معه أبداً، وقد شكلت تلك المستوطنة هدفاً لدى المقاومة من أجل القيام بقصفه كلما أمكن ذلك... بالإضافة طبعاً إلى باقي المستوطنات التي كانت قد زرعت في أراضي قطاع غزة.

وهكذا، تمكّنت المقاومة من تحجيم قدرة الجواسيس وإمكانيّاتهم إلى أقلّ حد ممكن، وتمكّنت أيضاً من ملاحقتهم، وصولاً إلى ملاذهم الآمن في مستوطنة جواسيس الشاباك الصهيوني... وتمكّنت المقاومة أيضاً بعد حسمها العسكري المبارك في قطاع غزة من أن تسيطر على مقرّ أجهزة أمن أوسلو، مما أفقد العملاء آخر ملاذ آمن كان من الممكن أن يلوذوا بالفرار إليه.

أما العامل الأهم والحاسم الذي ساعد على تحجيم قدرة العملاء على التجسّس على المقاومة، فهو أن غالبية الفصائل المقاومة والمجاهدة والثائرة في قطاع غزة على وجه الخصوص، كانت قد شكّلت أجهزة أمن خاصة بها، مختصة بموضوع ملاحقة العملاء والقضاء عليهم.

فالكل كان يبحث عن نقاط الخلل، وعن الثغرات التي تسلل منها العملاء لمعرفة أسرار المقاومة، من أجل سدّ تلك الثغرات والإبقاء على المقاومة فاعلة وقوية، وذات مقدرة على مواجهة الاحتلال، ومفاجأته بخططها دون أن يكشف سر عملها.

ولقد استمرت الفصائل المقاومة بدكّ المستوطنات الصهيونية التي في قطاع غزة لعدة أعوام، ممّا حول حياة المستوطنين والعملاء القاطنين فيها إلى جحيم، وجعل مهمة حماية تلك المستوطنات مستحيلة من قبل قوات الاحتلال رغم ما كانت تملكه من آلة حرب ودمار، إلا أنها عجزت وباتت مكتوفة الأيدي أمام بسالة رجال فصائل المقاومة.

وهذا ما جعل عرّاب تلك المستوطنات ومجرم صبرا وشاتيلا «أرئيل شارون» يقرر الفرار، هارباً من قطاع غزة، آخذاً معه المستوطنين الصهاينة والعملاء أيضاً، ليفروا كلهم إلى ما خلف الجدار الذي بات يفصل قطاع غزة عن فلسطين.. كل فلسطين.

خلف الجدار، وبعيداً عن قطاع غزة، تم تجميع عملاء جهاز الشاباك وإسكانهم هم وعائلاتهم الذين كانوا في غالبيتهم قد امتهنوا العمالة أباً عن جد... وما لبث أن تحوّل أولئك العملاء إلى مشكلة تقض مضاجع أجهزة الشرطة الصهيونية وأجهزة مكافحة الجرائم المنظمة داخل الكيان الصهيوني، فلقد أصبح العديد من هؤلاء الجواسيس الفارّين حملاً وعبئاً كبيراً على المجتمع الصهيوني.

فالعديد من هؤلاء العملاء قد أصبحوا يمارسون نفس النشاطات التي كانوا قد مارسوها سابقاً في قطاع غزة؛ فمنهم من امتهن مهنة إقامة أوكار لممارسة الرذيلة والدعارة، ومنهم من أصبح شغله الشاغل الإتجار بالمخدرات بشتى أنواعها، ومنهم من انقلب على أسياده فأصبح يتاجر بالسلاح ويزوّد المقاومة به أيضاً، كما يزود عصابات الإجرام داخل الكيان الغاصب به أيضاً، بل إن بعضهم كان يخون البعض الآخر من خلال تسليمه للمقاومة من أجل القصاص منه، بعد أن يكون قد تلقى بعض المبالغ النقدية من المقاومة. وهكذا، انقلب السحر على الساحر، وذلك لم يعنِ على الإطلاق أن قطاع غزة قد أصبح خالياً من العملاء والجواسيس، ولكنه كان يعني أن أجهزة أمن المقاومة في حكومة المقاومة قد أصبحت قادرةً وبشكل كبير وملحوظ على متابعة بقايا الجواسيس والعملاء.

وهذا ما جعلني أنا و«علي» بعد الحسم العسكري المبارك للمقاومة، وبعد نجاح المقاومة بالتصدي لقوات العدو أثناء معركة الفرقان نكفّ عن ملاحقة العملاء، ونتفرّغ لنكون جنوداً مرابطين على ثغور قطاع غزة، من أجل حمايتها والتصدي للعدو الصهيوني إذا ما حاول التسلّل إلى أرض القطاع المحرر.

أما سبب تركي المرابطة على الثغور أمانةً بين يدي إخوتي المقاومين، وتفرغي التام من كل الأعمال والأشغال باستثناء عمل واحد، فهو ملاحقة الجاسوس الذي تسبب باستشهاد أخي الأصغر «مدحت». وانضم إليّ «علي» من جديد تاركاً الثغور والمرابطين بأيدي المقاومين، بعد أن قرّر هو الآخر الوصول إلى العميل الذي كان خلف استشهاد زوجته وأطفاله.

فعلى الرغم من أن أجهزة الأمن الداخلي التابعة لحكومة المقاومة كانت تتحرى وتحقق بجدّ وتفانٍ من أجل الوصول إلى أولئك الجواسيس، إلاّ أنني و«عليّاً» قررنا أن نتولى الأمر سريعاً وحدنا لأنه لم يكن الوقت متاحاً لدينا للتواصل مع الجهات الرسمية. ولذلك، عملنا على تشكيل خليةٍ من أصدقاء لنا، ومن مقاومين ممن كانت لهم خبرة في مجال ملاحقة العملاء إبّان الانتفاضتين الأولى والثانية. وهكذا، وقع اختيارنا على المهندس «طارق»، الذي أحضر هو الآخر مساعداً له، ولقد اخترنا المحامي «خليلاً» الذي استعنّا به إبّان الانتفاضة الثانية، وها نحن اليوم نستعين به وبزوجته «مرام» أيضاً، إضافةً إلى عدد من أصدقائنا المقاومين الذين شكلوا مجموعةً من المرافقين والحرس، وشكّلوا الدعم اللوجستي الذي كنّا بأشد الحاجة إليه.

وهكذا، وبفضل من الله العلي القدير، تمكّنا بمساعدة المهندس «طارق» و«إياد» عضلات والشيخ «أحمد» الذي كان يدير كل عمليات الدعم والمساندة اللوجستية، ومن خلال مساعدة عدد من الأطفال الصغار في العمر والكبار في محبتهم لفلسطين وقدسها وأقصاها، من ترّصد حركة الجاسوس «حكيم»، والإيقاع به رغم أنه كان خارج نطاق الشبهات والشك... إلاّ أن أولئك الأطفال، وبشكل خاص، قد مكّنونا من تحديد نوع السيارة التي كانت تحوم حول منزل أخي وحول منزل «علي»، ولقد حددنا ثلاث سيارات كانت الأولى لـ«حكيم»، والثانية لزوجته، والثالثة كانت مستأجرة من قبل «حكيم».

فقد تعرّف الأطفال على صور تلك السيارات، واستطاعوا تشخيصها بشكل دقيق، بل إن أحدهم قام بالتعرف على صوت «حكيم» الذي كنا قد التقطناه أثناء تحرينا عنه... حتى أنني استعنت باثنين من أبناء أختي الكبرى لكي يراقبا ويترصدا ليلاً ونهاراً منزل «حكيم»؛ فلكونهما صغاراً في العمر لم يجلبا الشك

لدى «حكيم» ولا زوجته «سارة» ووالدها «نضير»، الذين كانوا يمارسون حياتهم بشكل طبيعي جداً، فـ«حكيم» كان يقضي معظم وقته في الجلوس مع بقايا عناصر وزارة الداخلية المنحلة التي كانت تابعة لأجهزة أمن السلطة، فهو ما زال يتلقى راتبه من السلطة في رام الله، رغم أنه لم يمارس عمله منذ أعوام طويلة، وهي أعوام الحسم العسكري المبارك. أما «سارة» فقد كانت هي الأخرى تقوم بعملها في محل بيع الملابس الذي تمتلكه بشكل طبيعي جداً. أما والدها «نضير» الكهل، فقد كان يمضي معظم يومه وهو جالس أمام أحد محلات بيع الأجهزة الإلكترونية والحواسيب الذي كان يملكه، إلاّ أنه لم يكن يديره، بل كان شخص آخر، وهو المهندس «حلمي»، من يقوم بإدارة ذلك المحل، من خلال قيامه بأعمال الصيانة اللازمة للحواسيب أو الأجهزة الإلكترونية والهواتف النقالة، ويقوم أيضاً ببيع مستلزمات تلك الأجهزة وإكسسواراتها.

فلم يكن وجود ذلك الكهل «نضير» أمام المحل يثير أيّ شكوك، إلاّ أن الحقيقة قد كشفت أن ذلك المحل هو أحد أخطر أوكار الجاسوسية في قطاع غزة على الإطلاق.

لقد أدى اكتشاف ذلك الكمّ الكبير من المعلومات خلال التحقيق مع أفراد تلك المجموعة التجسسية المكشوفة من «حكيم» وزوجته ووالدها، إلى تحوّل موضوع التحقيق من مسار الكشف عمن كان يقف خلف اغتيال أخي «مدحت»، واغتيال زوجة «علي» وأطفاله، إلى مسارات أخرى أكبر بكثير من قدرتنا أنا و«علي» على الإمساك بزمام أمورها. ويعود ذلك لكثرة عدد الجواسيس الذين اعترف بهم كلّ من «حكيم» الذي اعترف بـ«زهير» و«منذر»، و«سارة» التي ذكرت «سناء» وزوجها «عاطف» والطالبة الجامعية «ناهد» وزميلتها الطالبة «ندى». أما الكهل «نضير»، فلقد اعترف بكون محلّه وكراً للتجسس، وكون المهندس الذي يعمل لديه والذي كان اسمه «حلمي» ومساعده «سمير» هما من يديران أعمال التجسس هناك.

وقد لاحظت أن «حكيم» لم يكن يعلم عن أعضاء خلية زوجته شيئاً، ولا حتى عن أعضاء خلية الكهل «نضير»، وكذلك الكهل «نضير» لم يكن يعلم عن أعضاء خلية ابنته أو زوجها «حكيم» شيئاً، وحتى ابنة اليهودية «سارة» التي كانت تتجسس على زوجها «حكيم»، فلم تكن تعلم عن عناصر خليته شيئاً يذكر.

وقد أدت كثرة عناصر تلك الخلية، وتنوع نشاطها، واختلاف مكان سكنهم- فبعضهم كان يقيم في مدينتي، وبعضهم يقيم في مدينة سكن «حكيم» القديمة، وبعضهم يسكن في السكن الداخلي لإحدى الجامعات البعيدة عن مدينتي- أدّى كل ذلك إلى اتخاذي قراراً بأن أتوجّه إلى أصدقائي في جهاز الأمن الداخلي التابع لحكومة المقاومة من أجل إطلاعهم على ما كان بحوزتي من معلومات عن تلك المجموعة التجسسية.

ولذلك، اتجهت إلى منزل صديقي الضابط في الأمن الداخلي، والذي كان مسؤولاً عن التحقيق في كيفية استشهاد زوجة «علي» وأطفاله. عندما وصلت إلى منزله كانت الساعة تقارب السادسة والربع صباحاً، وقد كان لا يزال نائماً، فأيقظته زوجته، وقابلني وهو لا يزال يفرك عينيه من شدة النعاس، فقد كان قد أمضى ليلته في مبنى جهاز الأمن الداخلي، ولم يكن قد عاد إلى المنزل إلا قبل دقائق معدودة فقط... وما إن أخبرته أن هناك عدداً من العملاء قد كشفت لي أسماؤهم وعناوينهم وقلت له أن عددهم ثمانية، حتى قفز مسرعاً ليرتدي بذلته العسكرية، وينطلق بصحبتي أنا و«علي» والمهندس إلى مقر جهاز الأمن الداخلي.

هناك قمت بإعطائه أسماء الجواسيس الثمانية وعناوينهم، فقام بتجهيز عدة مجموعات، وأرسل بها إلى تلك العناوين لكي يقوموا باعتقال أولئك العملاء.

لقد رتّب ذلك الضابط «مجدي» الأمور بأسرع مما كنت أتصوّر، فقد أرسل مجموعتين مختلفتين إلى المدينة التي كان يسكن بها «حكيم» من أجل اعتقال

«زاهر» و«منذر»، على أن يتم ذلك الاعتقال بشكلٍ سريّ لا يثير شكوك أحد، بحيث يتم اعتقال «زاهر» أثناء توجّهه إلى عمله في أحد المقاهي التي كان يمتلكها في تلك المدينة، بعيداً عن منزله ومقهاه، وبعيداً عن أعين الناس أيضاً، أما منذر، فقد تم إصدار الأمر لاعتقاله أثناء قيامه بالتوجّه لفتح محل السوبر ماركت الذي كان يملكه، وكان ذلك كله يجب أن يتمّ قبل الساعة السابعة صباحاً.

أما عملية التحقيق معهم، فقد تقرّر أن تجري في مركز جهاز الأمن الداخلي التابع لتلك المدينة، لأن تلك الخلية كانت ناشطةً هناك بعيداً عنا، وكان اعتقال «زاهر» و«منذر» سلساً وسهلاً، وأدى ذلك الاعتقال إلى كشف عدد آخر من الجواسيس الذين كانوا يساعدونهم، ولقد اتضح لي فيما بعد أن عمل تلك المجموعة كان محصوراً في تتبع عدد من القيادات السياسية التي كانت ترتاد مقهى «زاهر» أو سوبر ماركت «منذر».

وكان «زاهر» قد نصب أجهزةً للتصوير والاستماع في كافة أرجاء مقهاه، مما كان يعني أن كل الأحاديث التي كانت تجري في ذلك المقهى كانت خاضعةً للمراقبة والتنصّت من قبل «زاهر»، ومن ثمّ من قبل جهاز الشاباك الصهيوني أيضاً، وكان كلّ ذلك يتم ببث ونقل مباشر من خلال جهاز بثّ مركّب داخل المقهى، يقوم بإرسال إشارات لأحد أبراج البث والاستقبال الملاصقة للجدار الفاصل بين قطاع غزة وفلسطين المحتلة.

كما كان «زاهر» يتاجر بالحبوب المخدّرة التي كان يحصل عليها من قوات الاحتلال، فيقوم ببيعها بأسعارٍ زهيدة جداً، من أجل إتلاف عقول المتعاطين لها، ودفعهم إلى الإدمان، مبعداً إياهم عن التفكير في مقاومة الاحتلال أو التصدّي له.

واتضح أيضاً أن غالبية من كانوا يتعاطون تلك الحبوب التي كان «زاهر» يقوم بترويجها وبيعها، هم من أولئك الموظفين في أجهزة أمن أوسلو أو وزاراتها الذين توقفوا عن العمل منذ سيطرة المقاومة على قطاع غزة، وأصبح أولئك الموظفون يتلقون رواتبهم من سلطة رام الله دون أن يمارسوا أيّ عمل، بل كانوا يمضون جلّ أوقاتهم في التسكّع في المقاهي أو في ممارسة أعمالٍ تجاريةٍ غير مشروعة... مما كان يجعل منهم صيداً سهلاً لدى «زاهر»، الذي استفاد من صيده هذا بكافة الطرق الممكنة.

أما «منذر» وهو الذراع الأيمن للجاسوس «حكيم»، فقد كان يدير عمله التجسسي من خلال محلّه التجاري، وبمساعدة ابنه «نديم» الذي كان يرصد مع والده الحركة التجارية في تلك المدينة، ويقوم بالتعرف إلى مالكي المحلات التجارية، من أجل تحديد هوية أصحابها وانتماءاتهم السياسية أيضاً.

ولقد اعترف «منذر» وولده «نديم» أنهما صنفا تلك المحلات التجارية إلى ثلاثة أصناف: أولها صنف لا يبالي مالكوه بما يجري من صراعٍ بين المقاومة من جهة والاحتلال من جهة أخرى، وصنف كان يرفض المقاومة للإضرار بها اقتصادياً عبر تلاعبه بالأسعار كلما كانت هناك أزمة ما، أما النوع الثالث، فهو النوع الذي كان يدعم المقاومة ويناصرها وينتمي إليها؛ وكانت المحلات التجارية التابعة لهذا النوع هدفاً لقوات الاحتلال من خلال عمليات القصف أثناء محاولات تلك القوات اجتياح المدن أو أثناء رغبة قوات الاحتلال استفزاز المقاومة، بحيث تقوم قوات الاحتلال بقصف تلك المحلات التجارية بذريعة أنها محال لتخزين السلاح أو صناعته، وغالباً ما كانت تلك الذرائع كاذبة وواهية ولا تهدف إلاّ للتغطية على الهدف الحقيقي الذي كان يتمثّل بتدمير البنية التحتية للاقتصاد في قطاع غزة المحاصر.

ولم يتوقف عمل «منذر» وولده «نديم» عند ذلك الحد، بل كانا يقومان بنقل أسماء كل التجار الذين يشتبه بأن لهم علاقة بالمقاومة من أجل منعهم من إدخال بضائعهم التجارية عبر معابر قطاع غزة المحاصرة، وقد أدى ذلك إلى تكدّس الكثير من تلك البضائع في الموانئ البحرية، أو في ساحات الانتظار على الجانب الآخر من الجدار الذي تسيطر عليه قوات الاحتلال.

واتضح لجهاز الأمن الداخلي في تلك المدينة مدى الضرر الذي تسبّب به كلّ من العملاء الثلاثة: «زاهر» و«منذر» وولده «نديم»، الذين كانوا قد شاركوا بعمليات لنقل مواد متفجرة من جهاز الشاباك الصهيوني وإيصالها إلى عملاء آخرين، مما أدّى إلى استشهاد عددٍ من المقاومين والثوار.

في نهاية فترة التحقيقات، تمّ عرض أولئك العملاء الثلاثة على قاضي التحقيقات، والنيابة العامة التي أحالت ملفهم إلى القضاء؛ ذلك القضاء المقاوم الذي تمّ تطهيره من رجالات سلطة أوسلو الذين عاثوا فيه خراباً وفساداً، فقد كانت الرشوة والمحسوبية هي القانون الذي كانت تدار به محاكم رجالات سلطة أوسلو.... أما اليوم، وبعد أن أصبح القضاء حراً نزيهاً لا يحكمه سوى دستور سُطّرت أحكامه من قرآن ربي- ذلك القرآن الفرقان الذي يفرّق بين الحق والباطل... حَكم القضاء بالقصاص-، فتمّ إعدام العملاء الثلاثة رغم معارضة رئيس سلطة أوسلو الذي حاول بكلّ السُبل تعطيل حكم الإعدام بحقّ جواسيس جهاز الشاباك الصهيوني... ذلك الشاباك الذي يصدر بطاقات الشخصيات المهمة لرجالات أوسلو لكي يتحركوا بحريتهم ويتنقلوا بسياراتهم الفارهة المكيّفة، بينما يذوق المواطن الفلسطيني العادي الذلّ والمهانة والمرّ على حواجز قوات الاحتلال الصهيوني.

لم تستجب حكومة المقاومة في قطاع غزة؛ تلك الحكومة التي تستمد شرعيتها من المجلس التشريعي الذي يشكّل أغلبية أعضائه درعاً منيعاً في وجه سلطة أوسلو الفاقدة للشرعية والأهلية. فالمقاومة هي من يملك الأغلبية في

المجلس التشريعي، وهي من تمنح وتسحب الثقة من الحكومات في فلسطين.

وقد أعطت هذه الأغلبية الثقة لحكومة المقاومة التي يحاول رجالات أوسلو الانقلاب عليها، إلاّ أنهم فشلوا ودحروا من قطاع غزة. والمبكي المضحك أنّ من قاد محاولة الانقلاب على حكومة المقاومة كان أحد قادة أجهزة أمن أوسلو وهو العقيد «محمد دحلان»، قائد جهاز الأمن الوقائي في قطاع غزة، ذلك العقيد الفاسد الذي دُحر وفرّ من قطاع غزة بعد محاولته الفاشلة، وبعد سقوط مقرات أجهزة الأمن التابعة له بيد رجال المقاومة.

وقد قام ذلك القائد الفاسد «محمد دحلان» بعد فراره من قطاع غزة بمحاولة انقلاب على قيادة سلطة أوسلو... تلك القيادة التي لفظته من الضفة بعد أن طردته من بين مراكزها التنظيمية أيضاً، وتم اتهام ذلك الانقلابي باختلاس أموال الشعب، وبإقامته قوة عسكرية تسعى للإطاحة برأس سلطة أوسلو.

وما يزيد قصة ذلك الفاسد ابتهاجاً، أن قائد سلطة أوسلو كان دائماً يدافع عنه ويتبنى مواقفه، بل إن قائد سلطة أوسلو اتّهم الحكومة المقاومة بأنها هي من كانت تسعى إلى الانقلاب عليه... ولكن كما يقال: فلسطين أرض مباركة، لا يمكن لسرّ أن يبقى سراً ما دام ذلك السر مبنيّاً على الفساد والإفساد... ما هي إلاّ أشهر معدودة حتى بدأ قائد سلطة أوسلو يكيل الاتهامات، وينصب المحاكم لذلك الفاسد «محمد دحلان».

أصدرت محكمة المقاومة حكمها بالإعدام على أولئك العملاء، ورفض رئيس سلطة أوسلو التوقيع على أمر الإعدام، لكن رئيس حكومة المقاومة، حكومة الشرعية، وقّع على أمر الإعدام رغم أنف رئيس سلطة أوسلو، ونفّذ ذلك الحكم بأولئك العملاء جهاراً نهاراً، بعد أن استنفذ محاموهم كل السبل القانونية التي باءت بالفشل، بسبب اعتراف العملاء. وقوبل تنفيذ حكم الإعدام بحق جواسيس الشاباك الصهيوني بارتياح كبير في أوساط أبناء قطاع غزة بشكل خاص، وفي أوساط المقاومة بشكل عام.

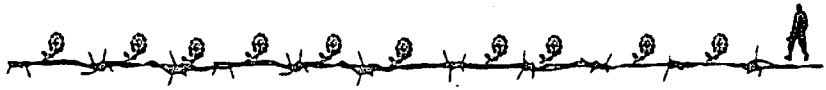

جولة جديدة من جولات معركة العقول

جولة جديدة من جولات معركة العقول

عندما قام الضابط المسؤول عن ملف التعامل مع قضايا العملاء والجواسيس في جهاز الأمن الداخلي «مجدي» بتوزيع المهام على ضباطه وعناصره، من أجل إلقاء القبض على العملاء الثمانية، اكتشف أنه لم يكن يملك العدد الكافي من العناصر والضباط لكي يقوم بكل تلك المهام بنفس الوقت. ونظراً لأن عامل الزمن والوقت كان أحد العوامل المهمة والحاسمة، فقد أوكل مهمة اعتقال «زاهر» و«منذر» إلى مجموعتين، وقد قامتا بعملهما على أكمل وجه، وسلّمتا المعتقلين إلى جهاز الأمن الداخلي في المدينة التي كان كل منهما يسكن فيها.

لقد جهز الضابط «مجدي» أربع مجموعات، قام هو بقيادتها بشكل شخصي، من أجل إلقاء القبض على «سناء» وزوجها «عاطف» وعلى الطالبتين الجامعيتين «ناهد» و«ندى».

وهكذا، كان على «مجدي» أن يترك لي مسؤولية التعامل مع المهندس الجاسوس «حلمي» ومساعده «سمير»، لذلك قمت مع «علي» والمهندس المقاوم «طارق» بالاستعانة بأربعة إخوة من المقاومين ذوي البنية الجسدية القوية والعزيمة الصلبة. وهؤلاء الأربعة كانوا على غير علم ودراية بما جرى معنا ليلة أمس، فقام «علي» بالذهاب إلى منازلهم لكي يستدعيهم، وذهبت أنا والمهندس «طارق» ومساعده «محمد» إلى السوق التجاري الذي يوجد فيه محل الجاسوس «نضير»، وكانت الساعة قرابة السابعة والنصف عندما وصلنا إلى هناك، فبدأنا عملية المراقبة التي استمرت نحو ساعة، انضمّ إلينا خلالها «علي» ومعه المقاومون الأربعة، ووصل أيضاً «سمير» مساعد المهندس «حلمي» لكي يفتح المحل. وبعد نصف ساعة، أي: في تمام الساعة التاسعة صباحاً، وصل المهندس الجاسوس «حلمي» إلى عمله في المحل التجاري.

بعد تأكدي من وصوله، أدركت أن العملية كلها تسير بشكلٍ صحيح، ودون أي معيقات أو تسريبات قد تؤدي إلى هرب «حلمي» و«سمير» من جهة، وباقي العملاء الآخرين من جهة أخرى، فالمشكلة مع «حلمي» و«سمير» كانت تكمن بأن الجاسوس الكهل «نضير» لم يكن يعلم مكان سكنهما بالتحديد، ولم يذكر لـ «علي» أثناء تحقيقه معه سوى اسميهما، إضافةً إلى عنوان محله التجاري. ولقد تعرفنا على شكل «سمير» والمهندس الجاسوس «حلمي» من خلال صاحب أحد المحلات المجاورة لمحلهم التجاري، وهو صاحب مطعم صغير كان يزودهما بالشاي والقهوة، بالإضافة إلى طعام الإفطار كل صباح في تمام الساعة التاسعة والنصف من كل يوم وبشكل روتيني. ولقد كان من المفترض وصول «نضير» في نفس تلك الفترة، إلاّ أن «نضير» كان قد وصل إلى محرقة النفايات قبل عدة ساعات بعد أن قتله «علي» قصاصاً لمقتل زوجته وأطفاله.

صاحب المطعم كان معروفاً لدينا بشكل جيد، لكون أحد أبنائه من رجال المقاومة، ولذلك، فلقد ائتمناه على سرنا فساعدنا ودلّنا على هوية كلا الجاسوسين... وما إن أصبح المهندس الجاسوس «حلمي» داخل المحل، حتى قمت أنا بالدخول بحجة السؤال عن أحد أجهزة الهواتف الجوالة لكي أقوم بشرائه، إلاّ أنني ما إن دخلت، حتى كان المهندس «حلمي» قد اختفى، ولم أعد أراه أو أعلم مكان وجوده على الرغم من أنني كنت متأكداً من وجوده داخل المحل.

بدأت الحديث مع مساعده البائع «سمير»، ثم دخل المهندس المقاوم «طارق» وتبعه مساعده «محمد» ليسألا عن أمر آخر، وهكذا، تشتّت فكر «سمير» بيني وبينهم... في تلك الأثناء دخل «علي» بصحبة اثنين من المقاومين وقاماً بإغلاق المحل من الداخل، وانقض المقاومان على «سمير» وطرحاه أرضاً، وقاما بتكبيله ووضع كيس على رأسه لحجب الرؤية عن عينيه.

أما المقاومان الآخران، فقد بقيا خارج المحل، بحيث قاما أولاً بوضع أقفال جديدة على باب المحل من الخارج؛ ويعود ذلك لأننا لم نكن نمتلك مفاتيح أقفال المحل القديمة، فلم يكن الجاسوس «نضير» يملك نسخة من المفاتيح، ويبدو أنه قد فقد نسخته أثناء قيامنا بعملية اعتقاله، وأظن أن تلك النسخة قد احترقت داخل سيارة ابنته «سارة»، لعنة الله عليها.

وهكذا، فقد بقي الاثنان في الخارج للتأكد من أن لا أحد سوف يزعجنا في الداخل، إلاّ أن وجودهما كان غير ظاهر للعيان بشكل مباشر. في الداخل وبعد عملية تكبيل «سمير»، اتجهت رافعاً مسدسي إلى غرفةٍ أشبه بالمستودع، كان المهندس العميل «حلمي» يجلس بها دون أن ينتبه لما قمنا به، رغم أنه كان يملك جهاز تلفاز ينقل له ما كانت ترصده كاميرات المراقبة داخل المحل وخارجه، فقد كان «حلمي» مشغولاً في إجراء مكالمة هاتفية عندما دخلت عليه، ولقد أنهى الاتصال بمجرد أن أشرت إليه بمسدسي أن يفعل ذلك.

وبعدها ألقيت به أرضاً، وقام «علي» بالعمل على تكبيله ووضع الكيس الأسود على رأسه، وأحضر المقاومان مساعده «سميراً» إلى داخل المستودع الصغير الملحق بالمحل.

كان أول عملٍ قمنا به هو القيام بتفتيش الاثنين بشكل جيد، وقمنا أيضاً بنزع ساعتي يدهما وإطفاء أجهزة هواتفهما الجوّالة، وبعد ذلك قمت بوضع كمامتين على أفواههما، وطلبت من «علي» وأحد المقاومين أن ينهالا ضرباً على «سمير»، وقمت أنا مع مقاوم آخر بضرب المهندس «حلمي» ضرباً مُبرِّحاً.

لقد تم كل ذلك دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة، ودون أن نترك مجالاً لأيٍّ منهما بأن يدرك سبب قيامنا بضربهما والتصرف معهما بهذا الشكل.

بعد ما يزيد عن العشرين دقيقة من الضرب المبرح المتواصل، أشرت لـ«علي» أن يتوقف ويوقف صديقه أيضاً عن ضرب «سمير»، وأشرت أيضاً إلى صديقي المقاوم بأن يتوقّف هو الآخر عن ضرب المهندس «حلمي»، فحلّ محل أنين «سمير» و«حلمي» الصمت المرفق بالترقّب.

وعندها قلت لـ«علي»: هل تريد يا شيخ «نادر» واسم «نادر» هو الاسم الحركي لـ«علي»، أن تقوم بإعدامهما هنا مثلما أعدمنا «نضير» قبل قليل؟... فأجاب «علي»: إعدامنا للجاسوس «نضير» كان لأنه قد كذب علينا، ولكن لا أظن أن «سميراً» ومهندسه الجاسوس «حلمي» سيكذبان علينا من أجل حماية أحد ما، وأعتقد أنهما سيقولان لنا ما قاما به من خلال عملهما التجسسي مع جهاز الشاباك الصهيوني.

في تلك اللحظة، قمت بفكّ فم «سمير» وقلت له: صحيح أنك ستفرغ ما في جعبتك أم أنك تفضل الموت هنا، والآن؟... ووضعت مكان العصبة التي كانت على فم «سمير» فوّهة مسدسي الذي أصبح داخل فمه.

بدأ «سمير» بالتحدث، لكننا لم نكن نفهم ما يقوله بسبب فوهة المسدس الموجود داخل فمه، لذلك قمت بإخراج المسدس من فمه، وقلت له: كرّر ما قلته أيها الجاسوس الحقير...

فقال «سمير» بصوتٍ باكٍ متألمٍ وحزين:

نعم، أنا جاسوس، والله العظيم إنني جاسوس، سأعترف لكم لكن لا تقتلوني، فقد جرّني «نضير» للعمل معه في التجسس على كل ما هو فلسطيني منذ نحو ستة أشهر، أما المهندس «حلمي» فقد كان يعمل مع «نضير» منذ عام تقريباً، وهو من يدير عمليات التجسّس من خلال هذا المحل وهذا المستودع.

هناك ابحثوا خلف الرفوف ذات اللون البني، يوجد باب، وهو مدخل المستودع الرئيس الذي يخبّئ داخله المهندس «حلمي» أجهزته وكل ما يتعلّق بعملنا التجسسي أيضاً.

نظرت حولي، فإذ بكل الرفوف متشابهة، وكلها ذات اللون البني نفسه، وعندها رفعت الكيس عن عيني «سمير» وقلت له: أشر إليّ على الرفوف التي تقصدها، فأشار إلى إحدى الزوايا، وأخبرنا كيف نقوم بفتح الباب السري الذي لم يكن ظاهراً، بل كان مخفياً بشكلٍ متقن. وعندها، قمنا بفتح الباب، ودخلت أنا إلى ذلك المستودع من قلب المستودع الأول.

ما إن دخلت، حتى أضاء المصباح بشكل فوري، فتمكّنت عندها من رؤية المئات من أجهزة الهواتف النقالة متعددة الأشكال، والعشرات من أجهزة الكمبيوتر المحمول، بالإضافة إلى العديد من الأجهزة الإلكترونية التي كنت أجهل طبيعة عملها. لذلك، أشرت إلى المهندس المقاوم «طارق» أن يدخل مع مساعده «محمد»، لكي يقوما بعملية فرز واستكشاف أوليّ لما كان يحتويه ذلك المخزن السري.

عدت إلى المستودع الأول، وطلبت من «علي» ومساعده المقاوم أن يقوما بحمل «سمير» إلى داخل المخزن السري، وقلت عندها لـ«سمير»: إن لم تقم بإرشاد «نادر» ومن معه إلى كل ما يحتويه ذلك المخزن السري، فسوف يكون ذلك المخزن مقبرةً لك، أيها الجاسوس الحقير.

حمل «علي» ومساعده ذلك الجاسوس «سميراً»، ودخلا معه إلى المخزن، وعندها طلبت من مساعدي أن يغلق الباب خلفهم. وهكذا، فقد كنت موجوداً بين المقاومين اللذين يحميان باب المحل الرئيس من جهة، وبين «علي» والمهندس المقاوم والجاسوس «سمير» من جهة أخرى، بحيث إنني كنت في الوسط تماماً.

قلت لمرافقي بعد أن أغلق الباب: أحضِر إليّ غطاء أو بطانية لكي أقوم بتغطية جثة الجاسوس حلمي بعد أن اقتله، وأردفت بأن قلت لمرافقي أن يعجّل بإحضار الغطاء؛ لأنني أريد اللحاق بـسمير» إلى المستودع السري، لكي أرى ما يحصل هناك.

فهم المقاوم ما كنت أرمي إليه، فقال لي: ولكن، ألا تريد أن تسأله عن أي شيء قبل أن تقوم بقتله؟ أم أن اعترافات «نضير» و«سمير» تكفيك، لكي تعرف ما الذي كان يفعله هذا الجاسوس؟

عندها قلت للمرافق: والله، معك حق، ولكني أعتقد أن الجاسوس «حلمي» لا يرغب في الحديث أو الاعتراف، وأخشى أنه يريد أن يموت سريعاً، مثلما مات معلمه الكهل «نضير».

ورغم ذلك، فسأعطيه فرصةً أولى وأخيرة لكي يقوم بكشف كل ما عنده من معلومات تتعلق بعمله التجسسي، ولعل ذلك يشفع له عند المحكمة إذا ما وجدت أنه قد غرّر به؛ فالمحكمة قد تصدر حكماً لا يتضمن إعدامه إن لم يكن قد تسبّب في مقتل واستشهاد أحد من أبناء فلسطين.

كان ما قلته من كلام بمثابة طوق أمل للمهندس الجاسوس لكي يقوم بكشف ما عنده، فبعد الجولة الأولى التي تمثلت بضربه ضرباً مُبرِّحاً دون أن يعلم سبب قيامنا بذلك، وبعد أن سمعنا ونحن نتحدث مع «سمير» الذي اعترف بعمالته ونجسه، واعترف بعمالة المهندس «حلمي» أيضاً، وبعد قيام «سمير» بالكشف عن المستودع السري، فقد كنت متأكداً من أن طوق الأمل الذي ألقيت به إلى الجاسوس المهندس سيكون له أثرٌ كبيرٌ جداً.

ما إن قمت بفك الربطة التي على فم الجاسوس «حلمي»، وأتبعت ذلك بأن قمت برفع الغطاء عن رأسه، حتى قال مايلي:

- أنا اسمي «حلمي» ولقد تم إسقاطي على يد «نضير» لأكون عميلاً لجهاز الشباك الصهيوني منذ ما يقارب العام... أنا لم أقتل أحداً، وكان عملي محصوراً...
- اخرس... وإياك أن تنطق بحرفٍ واحد، وإلا فإنيّ فسأجعل الرصاص الخارج من مسدسي هو الذي يخرس صوتك، أنا هنا من يسأل وأنت من يجيب؛ ولذلك لا تتحدث إن لم أسألك، وإن سألتك فلتكن إجابتك واضحة وبدون مقدمات وبلا أفخاخ أو متاهات حتى لا تضطرني إلى تعذيبك، لأنك تلاعبت بي وأضعت وقتي... أولاً: هل هناك جواسيس آخرون عملوا معك غير «نضير» و«سمير»؟
- فأجاب: نعم... هناك التاجر «وليد».
- أعطني عنوانه ومكان تواجده على الفور.
- عنوانه غير معروف لدي، فهو يسكن في مدينة أخرى، أما مكان تواجده فهو معلوم لدي، لأنه سوف يكون هنا في هذا المحل في تمام الساعة العاشرة، أي: بعد قليل، وكنت قبل أن تدخل أنت عليّ حاملاً سلاحك أتحدث معه عبر الهاتف، وأخبرني أنه قادم لكي يسلّمني بضاعة جديدة قد حصل عليها من الضابط المسؤول عنا في جهاز الشاباك الصهيوني... فـ«وليد» هذا هو حلقة الوصل بيني وبين الشاباك، وهو الذي يقوم بإدخال الأجهزة والمستلزمات، عبر إخفائها بين بضائعه التي تستورد من داخل فلسطين المحتلة.

عندها. قلت: وكيف أستطيع التعرف إلى شكل ذلك الوليد، فأشار إلي بواسطة تحريك رأسه باتجاه الحاسوب الموضوع على الطاولة، فقال: أنا أحتفظ بصورة له على جهاز الحاسوب... صورة مصوّرة عبر كاميرات المراقبة التي لديّ، داخل المحل وخارجه.

عندها قمت باستدعاء المهندس «طارق» الذي قام باستخراج الصورة من جهاز الحاسوب، وطبعها على ورقة من خلال الطابعة، وقام بذلك كله بعد أن قطع أيّ تواصلٍ بين جهاز الحاسوب النقال وشبكة الإنترنت بشكل نهائي.

أعطيت الصورة لـ«علي» الذي قام بالتواصل مع الحارسين في خارج المحل مما جعلهما يقومان بفتح المحل. وقد انتظر «علي» مع الحارسين قرابة الساعة أو يزيد حتى وصل ذلك التاجر العميل محملاً ببضائعه التي كان قد وضعها داخل صندوقين كبيرين... ما إن دخل إلى المحل بصحبة أحد العاملين لديه، حتى تم إغلاق المحل مرةً أخرى، والإطاحة به أرضاً، ومن ثم تكبيله هو وعامله.

أما أنا، وخلال فترة الانتظار تلك، فقد قمت بترك المهندس الجاسوس «حلمي» قليلاً وتوجّهت نحو «سمير» داخل المستودع السري، وسألته إن كان هناك جواسيس آخرون يعلم عنهم، فأجابني بأنه لا يعلم ولا يعرف سوى الكهل «نضير» والمهندس «حلمي».. ولقد كان صادقاً تماماً فيما قاله، وهذا ما أكدته التحقيقات التي جرت معه بعد ذلك في جهاز الأمن الداخلي.

لقد كان واضحاً لي من البداية عندما دخلت المحل وتحدثت إلى «سمير» بحجّة بحثي عن جهاز هاتف نقال جديد لكي أشتريه أن «سمير» لم يكن سوى شاب صغير في العمر، وهو أقرب إلى مراهق من كونه رجلاً ناضجاً، ولذلك فقد فضّلت أن أبدأ تحقيقي معه ومع «حلمي» بأسلوب الضغط الشديد منذ البداية لجعله ينهار، ولكي أجعله يبتعد عن التفكير في مواجهتي من خلال قوة العقل؛ فقد كنت أعلم أن معظم، إن لم يكن غالبية عملاء جهاز الشاباك الصهيوني، يكونون قد وضعوا خطة لحماية أنفسهم من خلال نفيهم صلتهم بذلك الجهاز التجسسي، ومن خلال مراوغتهم رغبةً منهم في اكتساب الوقت، لعلهم يستطيعون ترتيب أفكارهم وخوض مواجهتهم مع المحقق وهم بعيدون عن الضغط... ذلك الضغط الذي فضّلت أن يكون أهم عامل في كسر كافة أفكار العميل الذي يقع بين يدي وتجميدها.

ولكون «سمير» قد انهار مباشرةً وبشكل سريع، فلم يكن أمام المهندس «حلمي»، الذي تعمدت أن يكون موجوداً لكي يسمع كلّ ما يجري، إلاّ أن ينهار هو الآخر، ويفصح عما كان عنده. وأهم ما كان يعنيني في مرحلة التحقيق الأولى هو معرفة إن كان هناك عملاء آخرون مرتبطون بالعميل الذي تحت قبضتي؛ ففشلي باستخراج تلك المعلومة يعني هروب باقي أفراد شبكة التجسس... تلك الشبكة التي غالباً ما يكون أفرادها استعدوا ليوم سقوطهم بيد المقاومة.

عندما أدركت أن كلاً من المهندس الجاسوس «حلمي» و«سمير» لم يكونا يعرفان سوى ذلك التاجر «وليد»، وعندما تمكّن «علي» من القبض عليه وعلى مساعده محملين بأجهزة إلكترونية، كان قد قام بتهريبها إلى داخل قطاع غزة بهدف القيام بأعمال تجسسية من خلالهما؛ فكان من المفروض عليّ عندها ألاّ أعطي مجالاً للتاجر «وليد» لكي يتملّص، ولذلك قمت بإفراغ المستودع السري من كلّ ما كان به، ووضعت داخله «وليداً» و«حلمي».

قمت بعد ذلك بتعريض التاجر «وليد» للضرب المُبرِّح على يدي كلّ من «علي» واثنين من المساعدين، وكان المهندس «حلمي» يشاهد كل ما يحدث. وعندما انهار «وليد» من شدّة الضرب، سألت المهندس «حلمي» بعد أن نزعت القناع عن وجه التاجر «وليد»: هل هذا هو الجاسوس الذي كان يحضر إليك الأجهزة الإلكترونية من حواسيب وهواتف نقالة وغيرها من الضابط المسؤول عنك في جهاز الشاباك الصهيوني؟.

عندها أجاب حلمي قائلاً:

نعم، إنه هو من كان يشكّل الحلقة الواصلة بيني وبين الشاباك ذهاباً وإياباً أيضاً، فقد حضر اليوم ليسلّمني بعض الأجهزة التي كان مطلوباً مني بيعها وتسويقها داخل السوق المحلي الغزّي، وحضر أيضاً لكي يحصل مني على بعض الأجهزة؛ مثل الحواسيب والهواتف التي كانت عندي لكي أصلحها من أجل نقلها إلى جهاز الشاباك، لكي يقوم الخبراء هناك بتزويدها بأجهزةٍ للتتبع والاختراق.

كان التاجر «وليد» يستمع إلى ما يقوله «حلمي»، ويرى أيضاً آثار الضرب البادية على وجه «حلمي» وجسده... وعندها قلت له: ما تعليقك على ما قاله المهندس «حلمي»؟

فأجاب وليد التاجر:

لا أعلم عمّ تتحدثون، فأنا مجرّد تاجر أوصل البضائع وأستوردها وأسوّقها أيضاً، والمهندس «حلمي» أحد زبائني ليس أكثر، وأخمّن أنه قال ما قاله عني بسبب ضربكم الوحشي له، ولذلك إن أردتم أن تكملوا ضربكم لي فأكملوا، وإلا فسلّموني لجهاز الأمن الداخلي، فقد سبق لهم أن اشتبهوا بي، ولكنهم أطلقوا سراحي بعد أن تأكدوا أن لا علاقة لي بتلك الأمور... أنا تاجر شريف، وأنتم لستم سوى مجموعة من الارتجاليين الذين لا تعرفون ما تصنعون.

في تلك اللحظة، قال له «حلمي»: لا تحاول أن تمارس الألاعيب معهم، فهم يعرفون كل شيء، وقد قتلوا الكهل «نضير» كما قالوا قبل ساعات، لذلك، اعترِف الآن قبل أن تفقد حياتك...

كان من الواضح أن التاجر «وليد» ذو شخصية قوية مراوغة، لذلك قرّرت أن أخوض معه معركة العقول، فقلت له يبدو أنك لا تعلم شيئاً عن الأشرطة التي كان المهندس «حلمي» قد صوّرها لك، ويظهر خلالها صوتك وصورتك وأنت تتحدث مع حلمي حول نشاطكم التجسّسي بشكلٍ واضح لا يقبل الشك أو التأويل، ويبدو أن «حلمي» كان يسعى من وراء ذلك إلى تأمين نفسه وحماية حياته من خلال إعطائنا لتلك الأدّلة المصوّرة عنك.

ألا تدرك أيها الغبي أننا ألقينا القبض عليك متلبساً وأنت تحمل معك الأجهزة المزوّدة برقائق إلكترونية للتتبّع والتجسس على المقاومة؟ ألا ترى أنك تجلس داخل المستودع السري الذي كان يخبّئ به حلمي كل أسراره وأسرارك أنت وسمير و«نضير»؟؟ أنت لا تعرف «نضير» الكهل إلا أنه يعرف حلمي، ولقد دلّنا عليه وعلى «سمير»، ودلّنا حلمي عليك، ولذلك لا مفرّ أمامك إلاّ الاعتراف، وإلاّ يشهد الله علي أنني سوف أميتك ألف مرة قبل أن أريحك برصاصة أضعها بين عينيك.

في تلك اللحظة، قمت بركل المهندس «حلمي» بقدمي، فقال على الفور: نعم لقد أعطيتهم التسجيلات المصورة التي تثبت عمالتك لجهاز الشاباك.. ألا تذكر ذلك اليوم الذي جلسنا أنا وأنت داخل المستودع الخارجي وتحدثنا عن أمورٍ كثيرةٍ جداً تخص علاقتنا بجهاز الشاباك؟ ألا تذكر ذلك اليوم عندما قامت حكومة المقاومة بإعدام أحد عملائنا وحضَرت إليّ عندها وكنت خائفاً مرعوباً، لقد كنت أنا الآخر أكثر منك خوفاً ورعباً؟ ألم تخطّط في ذلك اليوم للهرب إلى خلف الجدار... إلى أراضي فلسطين المحتلة خوفاً من المقاومة؟ ألم نتّصل معاً بالضابط المسؤول عنا في جهاز الشاباك الصهيوني لكي نبلّغه بقرارنا الهروب خوفاً على أرواحنا؟ ألا تذكر أنه قال لنا لا تقلقا، فأنتما في أمان...؟ ألم يقل أن المقاومة غبية وارتجالية، كما قلت أنت قبل قليل؟؟

استيقظ يا «وليد» فكل شيء قد تمّ كشفه، ولقد شاهد هذا المقاوم المسلح كل شيء بأمّ عينيه.

في تلك الأثناء، خرج «علي» من المستودع، وعاد وهو يحمل أحد أجهزة الحاسوب المحمول، وكان قد أخذه من أحد أرفف المحل، وألقى به نحو التاجر «وليد» قائلاً له: شاهد اعترافاتك الدنيئة أيها الجاسوس الخائن.

أما أنا، فقد كنت أشاهد تعابير وجه «وليد»؛ تلك التعابير التي كانت قد بدأت بالتغير عندما كان المهندس «حلمي» يسرد اعترافاته بأنه كان قد سجّل لوليد أشرطة سرية... تلك الأشرطة التي لم أكن أنا أعلم عنها شيئاً قط، إلاّ أنني كنت قد رجّحت أن يكون شخص مثل المهندس «حلمي» قد قام بمثل هذا العمل؛ إما من أجل المتعة أو من أجل التسلية، لأنه كان يمتلك الأجهزة اللازمة لعملية التصوير، أو أنه قام بتلك الفعلة من أجل أن يحمي نفسه في المستقبل من «نضير» أو من «سمير» أو من «وليد»، وبالمناسبة فقد اكتشف مهندس المقاومة عشرات التسجيلات المصوّرة التي توثّق الكثير من الأمور المهمة التي كانت تدور داخل محل «نضير» والمهندس «حلمي».

كانت تعابير وجه «وليد» وكأنها كتابٌ مفتوح استطعت من خلاله أن أتيقّن من انه جاسوس. ولذلك، بمجرّد أن ألقى «علي» جهاز الحاسوب نحو «وليد»، قمتُ بالنظر نحو باب المستودع لكي أتأكد من أنه مغلق، ولكي أتأكد من أنه لن يسرّب الصوت إلى الخارج. ما إن رأيته مغلقاً، حتى أطلقت رصاصة واحدة نحو كتف «وليد»، استقرت داخل كتفه الأيسر، وعندها قلت: يبدو أنني قد أخطأت قلبك يا «وليد» هذه المرة، لكن لا تقلق، فأنا عادةً لا أجيد التصويب، ولذلك اعتبر هذه الرصاصة خطأ مثل خطئك عندما كذبت عليّ، وقلت لي أنك لست جاسوساً يا سيد «وليد»، فكل إجابة كاذبة سأتبعها برصاصة.... رصاصة تتبع رصاصة، حتى تتمكّن إحداها من إصابة قلبك أو إصابة تلك النقطة بين عينيك فتموت.

يا سيد «وليد».... هل أنت جاسوس؟

- نعم أنا جاسوس، إلاّ أنّ عمالتي وتجسسي كانا مقصورين على شيء واحد فقط لا غير؛ وهو إيصال ما يطلبه مني ضابط جهاز الشاباك الصهيوني إلى المهندس «حلمي»، وإيصال ما يريده «حلمي» إلى ضابط الشاباك، فأنا لم أتسبب بمقتل أحد، ولم أتجسّس على أحد، أنا مجرد مرسال لا أكثر ولا أقل.
- عندها أتبعت الرصاصة بلكمة، وقلت له: أنا سألتك سؤالاً واحداً بسيطاً، ولذلك فلتكن إجابتك واضحة وبسيطة أيضاً... هل أنت جاسوس؟
- نعم أنا جاسوس.
- هل هناك شخص آخر يعمل معك باستثناء «حلمي» ومساعدك الذي في الخارج مكبلاً عند المقاومين؟
- أنا لم أتعامل سوى مع «حلمي» فقط لا غير، أما مساعدي فهو موجود كعتّال بسيط لا يعلم عن عمالتي أيّ شيء على الإطلاق.

على إثر هذه الإجابة، قمت بتكرار سؤالي بعدة صيغ، محاولاً أن أستنبط إن كان هناك أحد آخر قد عمل مع «وليد»، إلاّ أنه كان قاطعاً في إجابته التي كررها، مؤكداً أنه لم يتعامل مع أحد باستثناء «حلمي» نافياً حتى علاقته مع «نضير» الكهل. ولذلك، لم يكن وجود التاجر «وليد» يشكّل أيّ فائدة لي في التحقيق، فجعلت «علي» واثنين من المقاومين يقومون بنقله وهو مضرج بدمائه إلى مقر جهاز الأمن الداخلي، حيث تم علاجه بواسطة طبيب قد حضر إلى هناك، وقام باستخراج الرصاصة من كتف «وليد». واستكمل التحقيق مع «وليد» هناك، إلاّ أن التحقيق معه لم يسفر عن أي شيء جديد، وعلمت أن «وليداً» كان قد سبق له أن تعرّض للتحقيق لدى جهاز الأمن الداخلي، إلاّ أنه قد تم إطلاق سراحه وتبرئته؛ فوليد في تلك الفترة لم يكن قد بدأ عمله مع جهاز الشاباك الصهيوني.

فوليد بدأ هذه العلاقة بعد أن قام أحد الضباط التابعين لجهاز الشاباك بابتزازه وتهديده بأن يمنع عنه التصريح الذي يعطى للتجار، من أجل الدخول من قطاع غزة إلى داخل فلسطين المحتلة لشراء البضائع، وقد خنع «وليد» نتيجة للضغط والابتزاز، وأصبح بعد ذلك حلقة وصل بين المهندس «حلمي» وبين ضابط الشاباك، ولو أن الفترة قد طالت قليلاً قبل اعتقال «وليد» لكان قد تورّط أكثر وغرق في وحل العمالة، وصولاً إلى ما لا يحمد عقباه.

عاد «علي» ومرافقاه مرةً أخرى إلى المحل، لكي ينقل العتال الذي كان ما زال مكبلاً ومغطى الرأس، ولقد تم إجراء تحقيق أوليّ مع العتال، إلاّ أن ذلك التحقيق لم يسفر عن أي شيء، فهو كان مجرد عتال لا أكثر. ومع ذلك، فقد فضلت أن يتم نقله إلى جهاز الأمن الداخلي، لعلّ الضابط «مجدي» يتمكّن من معرفة ما لم أتمكن أنا من معرفته، إلاّ أن الضابط «مجدي» هو الآخر وصل إلى طريق مسدود في تحقيقه مع ذلك الشاب العتال، ومع ذلك احتفظ به لديه تحسباً وحيطةً، حتى لا يكشف أمر اعتقال التاجر «وليد».

ولأن كشف اعتقال «وليد» كان من الممكن أن يؤدي إلى فرار أفراد شبكة التجسس رغم عدم ترابطها مع بعضها البعض، فيجب ألاّ أنسى أن ضابط المخابرات «يوري» هو الرابط والقاسم المشترك في عمل أفراد تلك الخلية التجسسية. وعلى الرغم من أنني تمكّنت من قطع يده التي كانت تعبث في أمن قطاع غزة، وكانت السبب وراء اغتيال أخي «مدحت»، إلاّ أنني كنت أتمنى لو أنني قد تمكّنت من الوصول إلى ذلك الضابط «يوري» حتى اقتص منه على تلك الجريمة وعلى غيرها من جرائمه وجرائم جهاز الشاباك الصهيوني.

عاد «عليّ»، مرةً أخرى، هو ومن معه من مقاومين إلى داخل المحل التجاري، كل ذلك تم بصمتٍ وهدوء، ودون أن يشكل وجودنا داخل المحل أيّ شكوك لأحد، فقد قمت بفتح المحل بشكلٍ طبيعي، وتولّى مساعد المهندس المقاوم «محمد» إدارة المحل بمساعدة أحد المقاومين، أما أنا والمهندس المقاوم «طارق» و«علي» ومن معنا من المقاومين، تولينا مواصلة التحقيق مع الجاسوسين «حلمي» و«سمير»، ولقد كان للمهندس المقاوم «طارق» الدور الأكبر والرئيسي في إدارة التحقيق، فلم نكن، لا أنا ولا «علي»، نفهم أو نملك القدرة على مناقشة الأمور التقنية والفنية التي كان الحديث يدور عنها.

لقد بدأنا نصنّف الحواسيب وأجهزة الهاتف النقال والأجهزة الإلكترونية حسب إرشادات المهندس «طارق»، واتضح لنا أنّ ما تمكنا من الحصول عليه هو كنز لا يمكن أن يقدر بثمن، فتلك الأجهزة كانت تحتوي على الداء والدواء أيضاً، ووجدنا قائمة كاملة متكاملة بأسماء كافة الأشخاص الذين كانوا قد ترددوا على هذا المحل من أجل صيانة حواسيبهم أو هواتفهم، وتلك القائمة كانت تضم ملاحظات حول الفيروسات التي زرعت في قلب تلك الأجهزة.

وهكذا، ومن خلال تلك القائمة، تمكّنا من الوصول إلى الأشخاص الذين كانت أسماؤهم مرفقة بمعلومات عنهم ومرفقة بصورة شخصية أيضاً، كان قد التقطها لهم المهندس العميل «حلمي» دون علمهم، وأرسل تلك الصور إلى أسياده في جهاز الشاباك الصهيوني، ولقد وجد المهندس المقاوم «طارق» قائمة بأسماء أشخاص كانوا قد قاموا بشراء بطاقات للذاكرة، متعددة الأشكال والأنواع، ومختلفة من حيث السعة التخزينية، إلاّ أنها كلها تقع ضمن نطاق ما يسمى بفلاش الذاكرة (يو أس بي).

ولقد كانت تلك الفلاشات تحتوي على فيروس مخبأ داخلها، يُمكّن جهاز الاستخبارات الصهيونية من السيطرة المطلقة على جهاز الحاسوب أو على جهاز الهاتف النقال بمجرد إدخال تلك البطاقة في أحد مداخل تلك الأجهزة، فبمجرد أن يقوم مستعمل الجهاز بإدخال بطاقة اليو أس بي لمدة ثوانٍ معدودة ينتقل الفيروس من البطاقة إلى ذاكرة الجهاز الأصلية، ويعمل على جعل الجهاز ذا سيطرة مزدوجة؛ بحيث إن صاحب الجهاز يتمكن من العمل على جهازه بشكل طبيعي جداً. وفي نفس الوقت، كان هناك ضابط أمن معلومات صهيوني يسيطر على نفس الجهاز محولاً إياه إلى جهاز للتجسس بشكل كامل، فقد كان ضابط أمن المعلومات الصهيوني يقوم بتشغيل الكاميرات التي في تلك الأجهزة، بالإضافة إلى المايكروفون، لكي تنقل له بشكل فوري كل ما كان يدور حول ذلك الجهاز، بالإضافة إلى ما في الجهاز من معلومات مخزنة على القرص الصلب، وصولاً إلى استعمال الجهاز كحلقة وصل وتمويه لاستعماله في أمور القرصنة الإلكترونية.

ولقد كشف لنا المهندس المقاوم «طارق» عن جهاز كان مجرد معرفة أنه موجود أصلاً بمثابة صدمة لي، فأنا لست من محبي تلك الأمور التقنية، بل إنني كنت أبتعد عنها وأفرّ منها.

كان ذلك الجهاز عبارة عن لوحة تشبه الوسادة التي توضع عليها فأرة جهاز الحاسوب، وكانت هذه الوسادة موضوعة على الطاولة أمام البائع في المحل، وقد وُصلت من أسفلها بسلكٍ خاصّ ممتد إلى جهاز يشبه أجهزة ذاكرة القرص الصلب المتنقلة، وكان عمل هذه الوسادة يتلخّص بأن تُحوِّل كل هاتف من تلك الهواتف المسماة هواتف ذكية- وهي الهواتف الأكثر تقدماً في عالم الهواتف- إلى سيطرة مطلقة من قبل ضابط أمن المعلومات الصهيوني وبشكل مباشر؛ فبمجرد أن يتم وضع جهاز الهاتف الذكيّ، فإن ما في داخله من معلومات تمتص وتنتقل إلى قرص الذاكرة الصلب، وبعد ذلك يتم إرسال فيروس بشكل لاسلكي إلى الهاتف الذكيّ، مما يجعله تحت سيطرة من أرسل ذلك الفيروس أي تحت سيطرة ضابط أمن المعلومات الصهيوني.. وهكذا، فقد تمكنّا من الحصول على أحد الأجهزة الأكثر تطوراً لدى العدو الصهيوني.

ولأننا طلاّب حق، فقد مكّننا الله تعالى من أن نحذر المئات من أبناء شعبنا الذين وقعوا فريسةً لدى المهندس «حلمي» ولدى أسياده الصهاينة؛ فالمهندس «حلمي» كان مهووساً بتسجيل وتوثيق كل ما يقوم به لأنه كان يعتقد أنه أذكى من أن يقع في يد المقاومة، وجرّه هذا الغرور إلى الهاوية وإلى المحكمة التي حكمت عليه، بعد أن قمنا بتسليمه، هو و«سمير» إلى جهاز الأمن الداخلي الذي استكمل التحقيق معه بخمسة وعشرين عاماً لكل من المهندس «حلمي» و«سمير» والتاجر «وليد»، وحكمت أيضاً ببراءة ذلك الفتى العتال.

وأدّى كشف تلك المجموعة من خلية «حكيم» و«نضير» إلى كشف أسلوبٍ جديد كان يستعمله جهاز الشاباك لم نكن حينها نعلم عنه سوى القدر القليل.

عندما انتهينا من التحقيق الميداني مع المهندس الجاسوس «حلمي» ومساعده «سمير»، توجّهنا مصطحبين معنا كافة الأجهزة الإلكترونية إلى مقر جهاز الأمن الداخلي، لإطلاع الضابط «مجدي» على ما جرى معنا في صباح ذلك اليوم.

ذلك اليوم الذي لم نكن أنا و«علي» والمهندس «طارق» ومساعده «محمد» قد نمنا خلاله، ولم نكن قد ارتحنا، فقد وصلنا ليلنا بنهارنا حتى نتمكن من أولئك الجواسيس الأوغاد.

مصائب الإشاعات... إشاعات المصائب

مصائب الإشاعات... إشاعات المصائب

عند وصولي إلى جهاز الأمن الداخلي، كان الوضع هناك أشبه ما يكون بخلية نحل، كان الضابط «مجدي» قد تمكّن من اعتقال كل من «هناء» وزوجها «عاطف»، ومن اعتقال الطالبتين «ناهد» و«ندى»، وكان «مجدي» قد تمكن هو ومن معه، من ضباط ومساعدين، من وضع يده على ما كان يدور داخل شبكة الجواسيس الأربعة التي كانت تحت إدارة وإشراف «سارة» التي ما عاد لها وجود الآن، إنما الوجود محصور بعناصر شبكتها، تلك الشبكة التجسسية التي لم يكن مطلوباً منها القيام بأي نوع من أنواع التجسس المتعارف عليه، بل كانت مهمة عناصرها محصورة في شيء واحد لا غير، وهو تسويق ونشر الإشاعات... تلك الإشاعات التي كانت تصل إلى «سارة» من ضابطها المسؤول «يوري»، وكانت تنقلها إلى الجواسيس الأربعة لكي يقوموا بنشرها داخل أروقة الجامعات، حيث كانوا يدرسون ويعملون.

فقد كانت الطالبتان «ناهد» و«ندى»، تقومان بنشر الإشاعات أمام زميلاتهن وزملائهن عدة مرات وطوال عدة أيام، وكان «عاطف» زوج «سناء» يقوم هو وزوجته بنفس العمل لكن بين أوساط معلمي الجامعة، حيث كانا يعملان هناك في مهنة التدريس، ولم يكتفِ أولئك الجواسيس الأربعة ببث الإشاعات في أروقة الجامعة، بل كانوا يعملون على بث الإشاعات داخل المنتديات التي على شبكة الإنترنت؛ حيثُ كان كل واحد منهم مختصاً في إدارة إحدى المنتديات. وهكذا، كان الأربعة يقومون بعملهم بشكل قوي ومؤثر جداً... خاصة أنهم كانوا يقومون بذلك في نفس الوقت الذي كان عملاء وجواسيس آخرون يقومون فيها ببث الشائعات المتماثلة في مدن أخرى وجامعات أخرى.

على الرغم من أن «سناء» وزوجها «عاطف» كانا يعملان تحت يد «سارة»، إلاّ أنهما لم يكونا على علم بعمل الطالبتين «ناهد» و«ندى»، حتى أن الطالبة «ندى» لم تكن على علم بعمل «ناهد» أو «سناء» أو زوجها «عاطف» مع «سارة»،

فقد كانت الفتاتان تدربتا على عملهما بشكل منفرد، أما «سناء» وزوجها «عاطف»، فقد شكلاً فريقاً واحداً متكاملاً.

لقد وجدت بأوراق التحقيق التي أخذتها من «خليل» وزوجته المحامية «مرام» أن المقصود من ذلك كما قالت «سارة» هو تنويع المعلومات عبر اختلاف مصدرها، مما يجعل الوصول إلى مطلق تلك المعلومة عبر الإشاعة صعباً، نظراً لأن هناك أشخاصاً عدة في أماكن مختلفة يتحدثون عن نفس الإشاعة وعما جاء فيها من معلومات.

إن سلاح الإشاعة كان إحدى المصائب التي ابتلي بها قطاع غزة المحاصر، مما كان يؤثر على المواطن البسيط الذي قد يهرع لشراء وتخزين نوع أو صنف معين؛ مثل الوقود أو الخبز إذا ما تناهى لأسماعه أن تلك السلع والأصناف سوف ترتفع أسعارها، وأنها سوف تشح من الأسواق لأي سببٍ كان.

فالإشاعة ذات تأثير كبير جداً، خاصة في المناطق التي تكون في حالة حربٍ واضطراب تماماً، مثل حالة قطاع غزة الذي يخوض حرباً مستمرة ومتواصلة مع العدو الصهيوني منذ عشرات الأعوام، حرباً كانت فيها الإشاعة سلاحاً يؤدي إلى إشاعة الخوف وعدم الطمأنينة، مما يؤثر على استقرار المجتمع.

مع انتهاء الضابط «مجدي» من التحقيق مع شبكة نشر الإشاعة، اتضح أن تلك الشبكة لم تكن تعلم أنها تعمل مع جهاز الشاباك الصهيوني، فقد كان إقرار تلك الشبكة أنهم يعملون بواسطة «سارة» مع أجهزة أمن سلطة أوسلو، ولذلك كانوا يقومون بعملهم رغبةً منهم في كسب ود ورضا قادة تلك الأجهزة الأمنية. تلك كانت اعترافاتهم التي أدلوا بها، وكانت «سارة» قد أجادت لعب ذلك الدور عليهم، بحيث صدّقوها واتبعوا تعليماتها، ولكن ذلك لم يمنع تقديم أولئك المغرَّر بهم الأربعة إلى المحكمة بعد أن أنهى الضابط «مجدي» التحقيق معهم.

في تلك المرحلة، كان كل أفراد الشبكة قد أصبحوا في قبضة أجهزة أمن المقاومة، باستثناء «حكيم» وزوجته «سارة» ووالدها «نضير» الذين تم القصاص منهم، والتخلص من أجسادهم النجسة.

بعد عدة أيام على الانتهاء من مطاردة أفراد شبكة التجسس واعتقالها، ذهبت إلى لقاء والدتي ووالدي؛ في ذلك اليوم تحدثنا عن كل شيء إلاّ عن تلك الليلة، وكأنها قد مُحيت من ذاكرة أمي وأبي، ومحيت معها أيضاً نظرة الأسى والحزن التي لم تكن تفارق وجهيهما، فيبدو أنهما قد داويا جرح فقدانهما لأخي «مدحت» ببلسم القضاء على الجاسوس الذي تسبب في استشهاده.

كنت أدرك أنني عندما قمت مع «علي» بالقضاء على «حكيم» و«سارة» و«نضير»، أننا كنا قد تجاوزنا القانون بقيامنا بعملية التصفية خارج أروقة جهاز الأمن الداخلي ودون علم قادة ذلك الجهاز، إلاّ أنني أعلم تماماً أنني لم أخالف شرع الله تعالى بأنني قمت بالقصاص من قاتل أخي، ذلك القاتل الذي كان جاسوساً لدى عدوي... ذلك العدو الذي لا يزال يحتل أرض فلسطين.. كل فلسطين.

ولذلك، كانت القاعدة الشرعية تقول أنه لا يجوز ولايحل لقاعد أن يفتي لقائم.. ولقد كنت قائماً مدافعاً عن الثغور ضد العدو، وكنت قائماً مجاهداً مقاوماً في سبيل الله تعالى. لذلك، فأنا قد كنت وبشكل شخصي في حالة صراعٍ دائمٍ ومستمرٍ مع قوات ذلك العدو ومع جواسيسه.

ولأنني أنتمي إلى الجيل القديم، جيل الانتفاضة الأولى، والانتفاضة الثانية أيضاً، فلم أكن قادراً على اتباع أسلوب آخر مختلف عن ذلك الذي اتبعته في متابعة قتلة أخي وقتلة زوجة «علي» وأطفاله.

وأُدرك أيضاً أنني كنت قاسياً عنيفاً.. وبلا قلب أيضاً، وكيف لا أكون وأنا في خضمّ معركةٍ ضد عدوّ غادرٍ ماكرٍ، لا ذمّة ولا عهد عنده؟.

كنت قاسياً عنيفاً وبلا قلب، لأنهم كانوا عملاء وجواسيس خانوا دينهم، وباعوا وطنهم من أجل مصالحهم وأطماعهم الشخصية... لقد زرع أولئك العملاء والجواسيس العبوات الناسفة التي أدت إلى مقتل واستشهاد من لا ذنب لهم، سوى أنهم يقولون: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله... لا ذنب لهم إلا أنهم يدافعون عن قدس الإسلام والمسلمين، ويدافعون عن الأقصى وأرض الأقصى وفلسطين التي بوركت من الله تعالى.

كيف لا أكون عنيفاً وقاسياً وهم مدرّبون على التملص والكذب، وهم قد امتهنوا لبس الأقنعة وانتحال شخصيات غير شخصياتهم، وقد نشروا عيونهم لترصد أبناء المقاومة وترصد حركتهم ضد الاحتلال؟.

كيف لا أكون شرساً وقاسياً وهم بحكم جنود الاحتلال؟ صحيح أنهم لم يكونوا يرتدون الملابس العسكرية، إلاّ أن أفعالهم التجسسية كانت لا تقل خطورة عن أفعال جيش الاحتلال. كيف لا أكون بلا قلب بعد أن انتزعت جسد أخي الشهيد وهو متفحّم بداخل السيارة التي قصفتها طائرات العدو الصهيوني، بعد أن زرع الجاسوس «حكيم» جهازاً بها ليدلّهم على موقع أخي؟... بلا قلب أنا، فلا حاجة لي بقلبي خلال معركتي مع عدوّ لا قلب له، عدوّ نفّذ أبشع المجازر في قانا وفي صبرا وشاتيلا، وهنا في قطاع غزة؛ عندما ألقى قذائف الفسفور الحارق، فحوّل أجساد أهل القطاع إلى أشلاء مشتعلة دن رحمة أو رأفة.

المعركة ضد عملاء جهاز الشاباك الصهيوني لن تنتهي إلاّ بنهاية هذا الكيان الغاصب المحتل لأرض فلسطين وزواله. ولذلك، فإن أفضل ما يمكن للإنسان الواقع تحت الاحتلال أن يقدمه هو أن يكون عيناً حاميةً وحارسةً للوطن من أعدائه، ويجب على الإنسان المقاوم أن يكون كتوماً صامتاً؛ حتى عندما يفكّر، يجب أن يفكّر وحيداً وبعيداً عن الآخرين، حتى لا يلفت الانتباه إلى نفسه، فدائماً هناك عيون تترصد وتراقب...

الخاتمة...

شخصية «شهاب» هي شخصية من نسج خيالي أنا... أنا الكاتب الذي كتب وروى الرواية... تلك الرواية التي أسميتها «المقصلة وجواسيس الشاباك الصهيوني»... رويتها رغم أنني لم أعش في قطاع غزة، ولم تطأ قدماي ترابه الطاهر المقاوم، ولكن هذا لا يعني أن الأحداث كانت من نسج الخيال... لا أبداً، فقد حدثت تلك الأحداث في مكان آخر ومع أشخاص آخرين، كانوا في الميدان وواجهوا المحتل وقواته وتصدوا لجواسيسه وعملائه.

اعلم يا عزيزي القارئ، ويا عزيزتي القارئة، أن كلّ حرف وكلّ كلمة وجملة قد كتبتها، هي جزء بسيط من الواقع الحقيقي المرّ الذي على أرض فلسطين المحتلة.. فنحن هنا في فلسطين نخوض المواجهة تلو المواجهة، سواء كان ذلك في ساحة المعارك أو في ساحات ومتاهات الأمن.

حتى هنا، داخل الأسر، حيث كتبت هذه الرواية، فإن مجرّد كتاباتي لها هو تحدٍ، ومجرّد تمكني من جعلها ترى النور هو انتصار.. ومجرد وصولها إلى يديك، يا من تقرأ بعينيك هذا الكلام، هو عزّة وشرف.

الأسير الصامد

م. عبد الله البرغوثي

من أقوال المهندس عبد الله البرغوثي :

لا تنسوا المهندس في عتمة عزلته لقد كان فيكم للحرية عنوانا

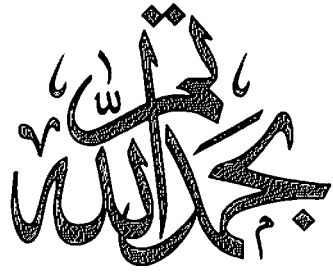

الموقع الالكتروني

http://daralbargouthi.com

كلنا مع الأسير الأسد عبد الله البرغوثي

دار البرغوثي للنشر والتوزيع

daralbargouthi@gmail.com